منهج تدبر القرآن الكريم



أ.د. حكمت بن بشير ياسين
الأستاذ بكلية القرآن الكريم
والدراسات الإسلامية بالمدينة المنورة

الطبعة الأولى

دار الحضارة للنشر والتوزيع

منهج تدبر القرآن الكريم

تأليف

أ. د. حكمت بن بشير ياسين

الأستاذ بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ياسين، حكمت بشير

منهج تدبر القرآن الكريم/ حكمت بشير ياسين، الرياض، ١٤٢٥هـ

١٠٤ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك: ٣-٠-٩٥٠٦-٩٩٦٠

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - أحكام أ- العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٥/٣٦٩

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٣٦٩

ردمك: ٣-٠-٩٥٠٦-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هـــاتف: ٢٤٩٥٨٤٥


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الحكيم، الذي أنزل القرآن العظيم؛ لنتدبر آياته، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، الذي أجزل علينا قواعد التدبر؛ لنقتدي بسنته، وعلى من أخذ بحكمته وآدابه.

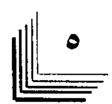
أما بعد:

فقد أكرمنا الله تعالى بإنزال القرآن الحكيم؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وجعله موعظة ومباركاً وهداية وشفاء لما في الصدور، ووصفه سبحانه وتعالى بالكريم، وأقسم بقسم عظيم على ذلك: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ ﴾ [1] ، وأمرنا – سبحانه وتعالى – أن نتأمل آلائه وآياته، وأن نتفكر في ملكوته وجبروته، ونرتشف من رحيق بركاته، كل ذلك من أجل تحقيق الغاية الكبرى ، ألا وهي: التدبر لكلام الله عز وجل في القرآن الكريم: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [2] ، فبين – سبحانه وتعالى – الغاية من إنزاله.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥-٧٧.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.



على معاني آياته»[1].

أما الذين لم يتدبروه، فقد حرموا أنفسهم هذا الخير العظيم، وقد أنكر الله تعالى على الكفار ووبخهم في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2].

قال العلامة الآلوسي: «وأصل التدبر: التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استعمل في كل تأمل، سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه»[3]، وأنكر عليهم سبحانه أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[4]، لقد جاء هذا التقريع: لأنهم لم يتدبروا القرآن الحكيم، ولم يحظوا بنيل شرف هذه الغاية الكبرى، فإن نفوسهم مضطربة، كالريشة في مهب الريح، يعتريها النكد والوسوسة بسبب التشبث بمفاتن الدنيا وملذاتها، التي تغشت على القلوب.

وأما الأمة الإسلامية فعندما نقلب صفحات تاريخها القديم والحديث، نجدها قد حققت هذه الغاية العظمى، وذلك حينما عملت بالمطالب العالية، بتلاوة القرآن الكريم حق تلاوته، وبحفظه وتدبره،

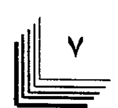
(١) مدارج السالكين، ١/ ٤٥١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٣) روح المعاني، ٥/ ٩٢، وذكره القاسمي أيضاً في محاسن التأويل، ٥/ ٣٢٠.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.

واستجابت لأحكامه وحكمه، واعتبرت بقصصه، واتعظت بمواعظه، فعرفت حق الله تعالى، فبوأها حضارة مرموقة، وهيبة بين الأمم، إذ لمع وميض هذه الحضارة في مكة المكرمة عندما نزل أول القرآن: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ ، ثم امتد إلى المدينة النبوية، واستمر يتوهج سنا برقها في أنحاء الجزيرة العربية باستمرار التنزيل والتدبر، والعمل به، إلى أن تم نزول القرآن، الذي كان يتبعه ضروب التدبر، فإذا بحضارة الجزيرة العربية قد تألقت بين الحضارات، فسطعت الأنوار فيها، وعمت أرجاءها، حتى خيمت عليها، ثم انبثق منها شعاع الهداية إلى بقية الحضارات، حتى انضوت تحت لوائها، إذ انبهرت بعهودها وصفائها، ونعمت ببركات أمنها، وارتقت مراقي عليائها، فانسجمت مع تواضعها وسلامها بعلمائها وحكامها، فإذا بدولة الخلافة تبسط أياديها البيضاء، وبركاتها الخضراء إلى أوروبا شمالاً، وأفريقيا غرباً، وبلاد الصين شرقاً، ترفرف على ربوعها راية القرآن الكريم، الذي هو محور الهداية: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (١) .

وقد حافظت على هذه المكانة السامية ما دامت محققة لتلك المطالب العالية القرآنية، وكلما أخذت بها: ارتقت وقويت، وكلما ابتعدت عنها: هانت ووهنت.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.



وهكـذا، فكـل مؤمـن يحقق تلك الغاية الكبرى فإن قلبه يحيا بالإيمان والعمـل الصـالح؛ لأن التدبر للقرآن الكريم يؤثر على القلب، وهو الذي بـه تحـيا وتصـلح بقـية أعضاء الجسم؛ وهذه الطريقة هي الأمثل للإصلاح جذريـاً مـن المصـدر الأسـاس، وهو القلب، وقد ثبت عن النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسـد مضـغة، إذا صـلت صـلح الجسـد كلـه، وإذا فسـدت فسد الجسـد كلـه، ألا وهـو القلـب»، فـإذا تأثر القلب بالتدبر، فإنه ينبض بحياة طيـبة، ونفـس مطمئـنة، متوجة بالشكيمة، تحفها السكينة، تسعى إلى إعمار مصـيرها في الآخرة، ولا تنسى نصيبها من الدنيا، فتكون من طراز المؤمنين الذيـن إذا ذكـر الله وجلـت قلوبهـم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعـلى ربهـم يـتوكلون، نفوسـهم كالجبال الرواسي، لا تزعزعها الشدائد، ولا تزلـزها المكـائد، تشـكر في السـراء، وتصـبر في الضراء، أفلا نكون من هذا الطراز؟ وكيف نكون؟ الجواب: بالتدبر.

وكيف السبيل إلى التدبر ؟!

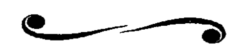
إنـه موضـوع هـذا الكتيـب، الـذي حاولـت فـيه الإجابـة عـن هذا السؤال.

إن الـتدبر مـن الأمـور الأساسـية ذات الأولوية في حياتنا اليومية، إذ هـو حـوار عظـيم فريد ليس لـه مثيل، فهو بين الخالق سبحانه، وعباده من الـثقلين: الإنـس، والجـن، والواسـطة في هـذا الحـوار، هو القرآن العظيم، الـذي اسـتوعب خطاب الله تعالى لنا، وما فيه من الهدي إلى أحسن السبل،

في كل ما يهم العبد في عبادته، وفي ارتقائه إلى المكانة السامية في الدنيا والآخرة، في حياة طيبة، وعيشة راضية.

فكم من الأوامر التي تنتظر منا الاستجابة، وكم من النواهي التي تحتاج إلى ازدجار، وكم من الأسئلة تحتاج إلى جواب، وكم من القصص التي هي موعظة للمتعظين لترق القلوب، وكم من الوقائع التي هي عبرة للمعتبرين لتستفيد النفوس، وكم من القلوب التي تحتاج إلى اطمئنان، وسأبدأ بفعل رسول الهدى محمد ﷺ ، وذلك من خلال تدبره للقرآن العظيم، تلاوة، وتعليماً، وتأملاً، وعملاً.

ويطيب لي في ختام هذه المقدمة أن أقدم الشكر الجزيل للأخ: محمد ابن عبدالعزيز نصيف - حفظه الله - على جهوده في مراجعة الكتاب جزاه الله تعالى خير الجزاء، والشكر موصول إلى ابنتي أم معاذ وأم الحُباب على قيامهما بصف الكتاب، وإلى من شاركهما كل من أبنائي: أحمد وبشير وعبدالرحمن جزاهم الله تعالى خير الجزاء.





التدبر بالقراءة المفسِّرة

إن قراءة القرآن يجب أن تكون قراءة صحيحة؛ لأنها المدخل الأمثل للتدبر، فهي مرحلة مهمة أساسية للتدبر، والقراءة الصحيحة لا يمكن أن تتحقق إلا بالتلقي من أفواه الشيوخ المقرئين وقد اعتنى بها النبي ﷺ فقد أكثر من التلاوة، ولو أحصينا ما كان يقرأه في الصلاة المفروضة الجهرية عندما كان يؤم الصحابة - رضي الله عنهم - نجد أنها تبلغ عشرات الألوف من الركعات!! فما بالك بالصلوات النافلة، والعرضات الثاقبة، إذ كان يعرض القرآن الكريم على جبريل - عليه الصلاة والسلام - في كل سنة مرة، إلا في السنة التي مات فيها فقد عرض القرآن مرتين، فيكون مجموع العرضات أربعاً وعشرين عرضة.

وقراءته كانت بتدبر، ولهذا كانت السورة عندما يرتلها تطول، فقد أخرج مسلم بسنده عن حفصة - رضي الله عنها - قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ صلى في سبحته قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام، وكان يصلي في سجدته قاعداً، وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها» [(١)] . وفي ذلك تعليم للتلاوة والتدبر، ورصيد من الثواب الجزيل.

وقد ذكر العلامة ابن عبدالهادي الخلاف في ثواب قراءة الترسل

---

(١) الصحيح: كتاب صلاة المسافرين، باب جواز النافلة قائماً وقاعداً، ح ٧٣٣.

والسرعة، ثم نقل عن الحافظ ابن رجب في كتابه (الاستغناء بالقرآن): «الصواب في المسألة أن يقال: ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدراً، وثواب كثرة التلاوة أكثر عدداً، فالأول كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً، والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من الصبية قيمتهم رخيصة» [(١)] .

وقراءته ﷺ ساعدت على مزيد من الفهم، ثم العمل، وقد وصفت أم سلمة – رضي الله عنها – قراءته فقالت: «كانت مفسَّرة حرفاً حرفاً» [(٢)] ، «وأنه كان يقطع قراءته آية آية» [(٣)] . قال الإمام النحاس: «ومعنى هذا: الوقف على رؤوس الآيات» [(٤)] .

وفي رواية عن أم سلمة – رضي الله عنها – : كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته، يقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثم يقف ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ ثم يقف... [(٥)] .

قال القرطبي: «قال علماؤنا – رحمه الله عليهم – : «قول أم سلمة:

---

(١) هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن، ص ٥٣٣.

(٢) أخرجه الترمذي،، السنن، باب ما جاء في كيف كانت قراءة النبي ٥/ ١٨٢، ح ٢٩٢٣، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه أبو دواد، السنن، كتاب الحروف والقراءات، ح ٤٠٠١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ح ٣٣٧٩.

(٤) القطع والائتناف، ص ٨٧.

(٥) أخرجه الترمذي، السنن، كتاب أبواب القراءات عن رسول الله ﷺ ، ح ٣١٠٧، وصححه الألباني في صحيح الألباني في صحيح سنن الترمذي، ح ٢٣٣٦.

كـان يقطـع قـراءته: يدخل فيه في جميع ما كان يقرؤه - عليه السلام - من القـرآن، وإنمـا ذكـرت (فاتحـة الكـتاب) لتـبين صـفة التقطـيع، أو لأنها أم القـرآن، فـيغني ذكرها عن ذكر ما بعدها، كما يغني قراءتها، في الصلاة عن قـراءة غيرهـا، لجـواز الصلاة بها، وإلا فالتقطيع عام لجميع القراءة، لظاهر الحديـث، وتقطـيع القـراءة آيـة آية أولى عندنا من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها، لحديث أم سلمة - رضي الله عنها - » [1].

فهـذه القـراءة كـان لهـا الأثر الفاعل في تعليم الصحابة - رضي الله عنهم - علم التفسير، وعلم التدبر.

إن مـثل هـذه القـراءة المؤثـرة إذا الـتقى معهـا الـتأمل في مقاصدها، والتفهم لمعانيها - كما سيأتي في مطلب التدبر لمقاصد الآيات - فإنها تمس شـغاف القلـب، فيخشـع ويخضـع للخالق سبحانه، الذي يخاطب عباده في هذا القرآن الكريم.

وقد بيّن الله تعالى أن الغاية من هذه القراءة هداية المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [2].

وقـد أوصى النبي ﷺ بالعناية بالوقف على المعاني، مثل: الوقف عند

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار، ص ١٤٠.

(٢) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠-١١.

ذكر آية الرحمة، والوقف عند آية العذاب، فقد أخرج النحاس بسنده من طريق الليث بن سعد، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، اقرأوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا تختموا ذكر عذاب برحمة**»[1].

فإذا نظرنا في أسماء السور وتقسيمها وعدد آياتها ووقوفها، نرى أن الأسماء والوقوف وخواتيم الآيات وترقيمها ليس لمعرفة الكمية والعدد والحفظ، أو أخذ النفس لاستئناف القراءة فحسب، وإنما للتفكر والتأمل، لتتأثر القلوب، فتنعم بمزيد إيمان، مما يؤدي إلى إصلاح الجوارح، فيرقى بها إلى مزيد من شعب الإيمان، وكلما زاد من هذا التدبر والتفكر زاد المؤمن من الارتقاء والنقاء.

قال النووي: «وقال السيد الجليل إبراهيم الخواص – رضي الله تعالى عنه – : دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء

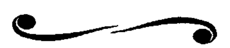
---

(١) وذكره النحاس ثم قال: «فهذا بعلم التمام توقيفاً عن رسول الله ﷺ، وسنده صحيح»، القطع والائتناف، ص ٨٩، وأخرجه الطحاوي من طريق الليث به نحوه، مشكل الآثار، ٤/ ١٨٣، وأخرجه الطبري بنحوه عن عمر بن الخطاب مرفوعاً، وصححه أحمد شاكر، التفسير رقم، ١٦، وأخرجه أبو داود بسنده عن أبي بن كعب مرفوعاً، بنحوه، السنن، الوتر، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ح/ ١٤٧٧، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ح ١٣١٠، وأخرجه الداني عن أبي بكرة نفيع مرفوعاً، وعن أبي مرفوعاً، في باب الحض على تعليم التام، المكتفى في الوقف والابتداء، ص ١٣٠-١٣١.

البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»[1].

إضافة إلى ما علمنا النبي ﷺ في تدبر القرآن، فإن الله تعالى علمنا أيضاً عند ذكر آيات العذاب أن نقف عندها؛ لما فيها من ذكر الترهيب، وأن ندعو الله تعالى كما أرشدنا، إذ ذكر من صفات عباد الرحمن بأنهم يدعون الله بأن يصرف عنهم عذاب جهنم كما في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾[2] فندعو الله تعالى:﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾[3].

ويرد هنا إشكال: وهو إن هذه القراءة تأخذ وقتاً طويلاً في مراجعة حفظ القرآن، وأنها تبطئ المراجعة، والجواب: أنه لا مانع أن يراجع حفظ القرآن بالطريقة المختارة، ويجعل قراءة خاصة بالتدبر، غير قراءة مراجعة حفظ القرآن حتى نجمع بين الفضلين، فكلاهما مطلوب عند الله تعالى ومحبوب.



(١) التبيان، ص ٦٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٥.

الترجيع في القراءة

ومن أسلوبه ﷺ أن يكرر في القراءة، وفي هذا الأسلوب حث على تدبر الآية التي يرددها مراراً، ووقوف على معانيها ومراميها، ويدل هذا التكرار على الاعتناء والاهتمام بها.

أخرج ابن ماجه بسنده من حديث جسرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذر – رضي الله عنه – يقول: «قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها» والآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [(١)] [(٢)].

إن هذا الترديد لهو آية التدبر وقد فعل ذلك كثير من الصحابة ومن بعدهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقد بوب الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام بعنوان: «باب ما يستحب لقارئ القرآن تكرار الآية وتردادها» ثم ساق هذا الحديث، وقال أيضاً: «حدثنا هشيم قال: أخبرنا حصين، عن أبي الضحى، عن تميم الداري – رضي الله عنه – أنه أتى المقام ذات ليلة، فقام يصلي، فافتتح

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح ورجاله ثقات»، السنن، إقامة الصلاة، ح ١١٣٥٠، ورواه النسائي في الكبرى، السنن، افتتاح الصلاة،٢/ ١٧٧، وأحمد في المسند وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم، وقال: «صحيح»، المستدرك، ١/ ٢٤١، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ح/ ١١١٠، وصححه الأرناؤوط في تحقيق كتاب: التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٦٧.

السورة التي تذكر فيها الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ فلم يزل يرددها حتى أصبح»[1].

وروى أبو عبيد بسنده أيضاً عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه كان يردد قوله تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ حتى أصبح[2].

قال السيوطي: «لا بأس بتكرير الآية وترديدها»، ثم ذكر رواية النسائي عن أبي ذر – رضي الله عنه –[3].

وأخرج البخاري بسنده عن عبدالله بن مغفل – رضي الله عنه – قال: «قرأ النبي ﷺ يوم الفتح، فرجع فيها»[4]. قال ابن حجر: «فرجع فيها، أي صوته، أي ردد صوته بالقراءة»[5]. وقد أورده البخاري في كتاب التوحيد من عدة طرق بلفظ: «كيف ترجيعه؟ قال: آ آ آ ثلاث مرات»[6].

قال الزبيدي: «الترجيع في الأذان: هو تكرير الشهادتين جهراً بعد

---

(١) فضائل القرآن، ص، ٧٩، رقم ١٨٢، الجاثية، ٢١.
(٢) فضائل القرآن، ص، ٨٠.
(٣) الاتقان، ١/ ١٤١، ط، حلبي.
(٤) الفتح، رقم ٤٨٣٥.
(٥) الفتح، ٨/ ٥٨٤.
(٦) انظر: الفتح، ١٣/ ٥١٢، ح ٧٥٤.

إخفائها، هكذا فسره الصاغاني، والترجيع أيضاً: ترديد الصوت في الحلق... أي المد»[1].

واعلم أن المد يعطي فترة زمنية أكبر لمزيد من التدبر والتأمل والتأثر، كما ثبت عند النبي ﷺ أنه كان يمد ببسم الله، ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم. وثبت أن قتادة قال: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبي ﷺ فقال: كان يمد مداً[2].

وقد تأثر الصحابة – رضي الله عنهم – ومن بعدهم بترديد الآية، فقد أخرج الإمام أحمد في كتاب (الزهد) عن ابن نمير، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: «دخلت على أسماء بنت أبي بكر وهي تصلي، فسمعتها وهي تقرأ هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ فاستعاذت، فقمت وهي تستعيذ، فلما طال عليَّ، أتيت السوق ثم رجعت، وهي في مكانها تستعيذ»[3].

أي استعاذت بالله تعالى من عذاب جهنم.

وروى عبدالرزاق عن سفيان الثوري، عن سعيد بن عبيد الطائي قال: «رأيت سعيد بن جبير وهو يؤمهم في رمضان، يردد هذه الآية: ﴿إِذِ

---

(١) تاج العروس، ٥/ ٣٥١.
(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، ٦/ ٢٤١.
(٣) انظر: هداية الإنسان، ص ٥٧١، وسنده ثابت.

ﭐلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ ﴾ [1] ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ [2] يرددها مرتين ثلاثاً» [3] .

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عن يزيد، عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير: «يردد هذه الآية في الصلاة بضعاً وعشرين مرة: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [4] » [5] .

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام والفريابي بسنديهما عن محمد ابن كعب القرظي قال: «لئن أقرأ في ليلتي حتى أصبح ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ و ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ لا أزيد عليهما، أتردد فيهما، وأتفكر، أحب إلي من أن أهذّ القرآن ليلتي هذّا» [6] .

إن هذا الترديد لهذه الآيات من هذين التابعيين المفسرين له حلاوته وتدبره، وفيها تذكير لهذه النفس بهذا اليوم العصيب، وهو يوم القيامة، فكلاهما كان يتفكر في هذا اليوم، وكلما تكررت التلاوة، فإنها تعطي مزيداً من التأمل والتدبر، ثم زيادة الإيمان بمشيئة الله تعالى، وهكذا نرى كل أولئك الذين رددوا الآيات السابقة في ذكر مصير بني آدم يوم القيامة،

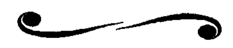
---

(١) سورة غافر، الآية: ٧١.
(٢) سورة الانفطار، الآيتان: ٦-٧.
(٣) المصنف، ٢/ ٤٩٢، رقم ٤١٩٦، وسنده صحيح.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.
(٥) فضائل القرآن، ص ٦٩.
(٦) فضائل القرآن، لأبي عبيد، ص ٩١، وفضائل القرآن للفريابي، ص ٢٢٢.

إن هذا لهو تدبر المصير ومصير التدبر.

وأخرج أبو عبيد أيضاً بسنده عن أبي جمرة قال: «قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لئن أقرأ البقرة في ليلة، فأدبرها وأرتلها، أحب إليَّ من أقرأ كما يقول» [1] .

قال الإمام النووي: «وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [2] يرددها إلى السحر» [3] .



(١) فضائل القرآن، ص ٧٤.

(٢) سورة الزمر، آية ١٦.

(٣) التبيان، ص ٦٨.



التدبر لمقاصد الآيات وإيراد ما يناسبها من أذكار

ومن هديه ﷺ في قراءة القرآن الكريم وتدبره: ما ثبت عن حذيفة – رضي الله عنه – كان إذا مرّ بآية رحمة استبشر وسأل، وإذا مرّ بآية عذاب أشفق وتعوذ، وإذا مرّ بآية تنزيه نزه وسبح [1]، وعن حذيفة قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح سورة النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤالٍ سأل، وإذا مر بتعوذٍ تعوذ، ثم ركع، فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قام طويلاً، قريباً مما ركع، ثم سجد، فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه [2]. وهذا من أرقى الأساليب في التمرن على التدبر عند قراءة القرآن الكريم.

إنها قراءة التدبر وتدبر القراءة، قال الإمام البغوي بعد أن ذكر حديث حذيفة مرفوعاً في التدبر: «المستحب للقارئ في الصلاة وغير الصلاة هذا، إذا قرأ آية رحمة أن يسأل، أو آية عذاب أن يتعوذ، أو آية

(١) أخرجه المروزي، بسند صحيح في تعظيم قدر الصلاة، ١/ ٣٢٧، ح ٣١٥.
(٢) صحيح مسلم، صلاة المسافرين، باب استحباب بتطويل القراءة في صلاة الليل، ح ٧٧٢.



تسبيح أن يسبح» [١] . وبنحو هذا القول، قال فضيلة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن عبدالفتاح القاري [٢] .

قال الإمام النووي: «قال أصحابنا – رحمهم الله تعالى – ويستحب هذا السؤال والاستعاذة والتسبيح لكل قارئ، سواء كان في الصلاة أو خارجاً عنها. قالوا: ويستحب ذلك في صلاة الإمام والمأموم والمنفرد؛ لأنه دعاء، فاستووا فيه، كالتأمين عقب الفاتحة» [٣] .

وكذلك عند نزول بعض آيات الوعيد والتهديد، فقد كان يتعوذ بوجه الله تعالى، وثبت عن جابر – رضي الله عنه – قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [٤] قال رسول الله ﷺ : أعوذ بوجهك، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [٥] قال: أعوذ بوجهك» [٦] .

وهذا التعوذ فيه تفسير لخطورة المشهد الذي ترسمه الآية، والتخويف منه.

---

(١) شرح السنة، ٣/ ١٠٤.
(٢) سنن القراء، ص ١٥٨.
(٣) التبيان، ص ٧٢.
(٤) سورة الأنعام، آية ٦٥.
(٥) سورة الأنعام، آية ٦٥.
(٦) صحيح البخاري (التفسير، سورة الأنعام، باب (قول هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) ح٤٦٢٨.

ومن صيغ سؤاله ﷺ أن يقول: «**اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى**».

ويستنبط مما تقدم أن النبي ﷺ كان يقف عند الآية التي فيها ذكر الرحمة، أو الآية التي فيها ذكر العذاب، أو الآية التي يذكر فيها التنزيه، فإنه بعد الوقف يدعو الله تعالى، وكذا في الرواية الثانية، فإن الدعاء بقوله: «أعوذ بوجهك» يدل أنه وقف عند الآية ثم دعا.

وإذا عملنا بهذا الحديث من الوقف والذكر، فسنكون قد تدبرنا مئات الآيات التي ذكرت تنزيه الله تعالى، ومئات الآيات التي كررت ذكر الرحمة، ومئات من الآيات التي أنذرت من العذاب، وياله من حديث شامل، لكن قلّ من هو به عامل.

وأما كيفية تسبيحه: فمنها ما رواه البخاري بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [(١)] إلا وكان يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» [(٢)].

ومنه يستنبط: تدبر النبي ﷺ بالتسبيح واستجابته لهذا في قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [(٣)].

---

(١) سورة النصر، آية ١.

(٢) الصحيح، تفسير سورة النصر، ٨/ ٧٣٣، ح ٤٩٦٧.

(٣) سورة النصر آية: ٣.

وكذلك ثبت عنه ﷺ: أنه كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [1] «سبحانه ربي الأعلى» [2].

وأما تدبر الصحابة فكان بدمع العيون، واقشعرار الجلود، فقد سأل عبدالله بن عروة بن الزبير جدته أسماء - رضي الله عنها - كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرأوا القرآن؟ قالت: «كانوا كما نعتهم الله تعالى: تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم» [3].

وعن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قرأت هذه الآية: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [4] فقالت: «اللهم مُنّ علينا، وقنا عذاب السموم، إنك أنت البر الرحيم» قيل للأعمش: «في الصلاة»؟ قال: «نعم» [5]. وقد تأثرت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - بهذه الآية وترديدها وكثرة الاستعاذة عند ذكرها، وقد تقدم ذكر هذا التأثر في المطلب السابق، إن هذا الدعاء من هذه الصدّيقة

---

(١) سورة الأعلى آية: ١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، المسند ١/ ٢٣٢، وأبو داود، السنن، ح ٨٨٣، والحاكم في المستدرك ١/ ٢٦٣-٢٦٤، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ، ح ٧٥٨.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره، ل ١٦٩أ، عن هشيم، عن حصين، عن عبدالله، وسنده صحيح.

(٤) سورة الطور، آية: ٣٧، ٣٨ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح، انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤١١، طبعة الشعب.

بنت الصديق – رضي الله عنهما – أوردته لتكون من أولئك المذكورين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] فتكون في عدادهم، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا، وأن يقينا عذاب السموم.

ولقد تأثرت الجن بهذا المنهج، وسلكته وعملت به، وأخبر بذلك ﷺ أصحابه – رضي الله عنهم – كما سيأتي في المطلب التالي، ليشجعهم ذلك على التدبر والتفاعل مع القرآن العظيم.

وأخرج الإمام أحمد من طريق عبدالله بن المبارك، وقتيبة بن سعيد، عن ابن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن زياد بن نعيم، عن مسلم بن مخراق، عن عائشة قال: «ذكَرَ لها أن ناساً يقرأون القرآن في الليلة مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرأوا ولم يقرأوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، فلا يمر بآية فيها تخوف، إلا دعا الله عز وجل واستعاذ، ولا يمر بآية فيها استبشار، إلا دعا الله عز وجل ورغب إليه» اهـ.

وذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث، ثم تلاه بحديث ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴾[2] «كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك لسانه وشفتيه، فيشتد عليه...»

(١) سورة الطور آية: ٣٨.
(٢) سورة القيامة: ١٦.



متفق عليه. ثم قال: «وفيه دليل على استحباب ترتيل القراءة والترسل فيها، من غير هذرمة ولا سرعة مفرطة، بل بتأمل وتفكر، قال الله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [1] [2].

والهذرمة هي: السرعة في الكلام.

إن مثل هذه القراءة المؤثرة إذ التقى معها التأمل بمقاصدها والتفهم لمعانيها، فإنها تمس شغاف القلب، فيخشع ويخضع للخالق الذي يخاطب عباده.

وقد حثنا النبي ﷺ أن نسأل الله تعالى عند قراءة القرآن العظيم، فقد ثبت عنه أنه قال: «**من قرأ القرآن فليسأل الله به...**» وهذا الحديث رواه عمران بن حصين: «أنه مر على قارئ يقرأ القرآن، ثم سأل، فاسترجع...» ثم ذكر الحديث [3].

مما يدل على أن الصحابة قد عملوا بهذا التدبر النبوي، وذلك إذا مرّ بآية فيها رحمة سأل، أما الاسترجاع فإنه عند المصيبة، فلعله عند ذكر القصص وما فيها من المصائب والصبر عليها.

وهكذا تدبر الصحابة والتابعين ومن بعدهم على المنهاج النبوي.

---

(١) سورة ص آية: ٢٩.

(٢) انظر: فضائل القرآن، ص ١٢٤- ١٢٥.

(٣) سنن الترمذي، ثواب القرآن، باب ٢٠، ح ٣٠٩٦، وحسنّه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ح ٢٣٣٠، وفي السلسلة الصحيحة، ٢٥٧.



فقد أخرج أبو نعيم من طريق أبي بكر بن أبي شيبه قال: حدثنا وكيع، عن عبدالله بن موهب – الخولاني الشامي – ، عن صالح بن سعيد المؤذن، قال: «بينا أنا وعمر بن عبدالعزيز بالسويداء، فأذنت الآخرة، فصلى، ثم دخل القصر، فقلما لبث أن خرج، فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فاحتبى، فافتتح بالأنفال، فمازال يرددها ويقرأ، كلما مر بتخويف تضرّع، وكلما مر بآية رحمة دعا حتى أذنتُ الفجر»[1].

وأخرج الإمام أحمد عن بهز قال: حدثني ابن سليمان، حدثنا أسماء ابن عبيد، عن نافع قال: «كان عبدالله بن عمرو يقرأ في صلاته، فيمر بالآية فيها ذكر الجنة، فيقف عندها، فيدعو ويسأل الجنة، قال: ويدعو ويبكي، وقال: ويمر بالآية فيها ذكر النار، فيدعو ويستجير بالله عز وجل منها»[2].

وأخرج ابن أبي شيبة بسنده عن محمود بن ربيع، عن الصنابحي، قال: «صليت مع أبي بكر المغرب، فدنوت منه، حتى مست ثيابي ثيابه، أو يدي ثيابه، فقرأ في الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب، وقال: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾[3]»[4]. وذلك لأن في سورة الفاتحة قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

---

(١) الحلية، ٥/ ٣٢٤، وانظر: هداية الإنسان، ص ٥٧٢.

(٢) الزهد، ص ٢٨٥، رقم ١٠٧٢، وسنده حسن.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٤) المصنف، ٢/ ٣١٨، رقم ٣٦٩٩، كتاب الصلاة، باب (من كان يقرأ القرآن الأولين بفاتحة الكتاب).

وعن محمد بن يوسف الفريابي قال: «قرأ علي سفيان الثوري كتابه إلى عباد بن عباد الخواص، وفيه: وإذا قرأت القرآن، أو قريء عليك القرآن فافهم القرآن، وتفكر في كل حرف منه...» [1].

وقال حسين بن علي بن يزيد الكرابيسي: «بتُ مع الشافعي بمصر ليلة، فكان يصلي ثلث الليل، فما رأيته يزيد على خمسين آية، فإذا أكثر فمائة، وكان لا يمر بآية رحمة إلا يسأل الله لنفسه والمؤمنين والمسلمين عفوه، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ منها، وسأل النجاة لنفسه، ولجميع المؤمنين...» [2].

وقال مجاهد: «عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أوقفه عند كل آية، أسأله: فيم نزلت؟ وكيف كانت؟ ويقول لي: اكتب، فأكتب» [3].

وعن عون بن عبدالله قلت لأم الدرداء: «أي عبادة أبي الدرداء أكثر؟»، قالت: «التفكر والاعتبار» [4].

وعن أبي الدرداء قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة» [5].

وعن نافع: «كان ابن عمر إذا قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ

(١) رواه ابن عبدالهادي بسنده عنه ،هداية الإنسان، ص ٥٣٨.
(٢) انظر: هداية الإنسان، ص ٥٥٢.
(٣) انظر: السير، ٤/ ٤٥٠.
(٤) تاريخ دمشق، ١٣/ ٣٧٧، وسير أعلام النبلاء، ٢/ ٣٤٨.
(٥) طبقات ابن سعد، ٧/ ٣٩٢، وسير أعلام النبلاء، ٢/ ٣٥٢.

﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [1] بكى حتى يغلبه البكاء» [2].

وعن مهدي قال: «كنت لا أستطيع سماع قراءة سفيان الثوري من كثرة بكائه» [3].

وعن إسحاق بن إبراهيم الطبري قال: «ما رأيت أحداً أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من فُضيل، كانت قراءته حزينة، شهية، بطيئة، مترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يردد فيها وسأل...» [4].

وعن يزيد بن عبيدة قال: «من أراد أن يعرف كيف وصف الله نفسه، فليقرأ شيئاً من أول الحديد» [5]، وهو كما قال في الآيات الست الأول من سورة الحديد، فيها بعض صفات الله تعالى.

وعن زهير بن صالح قال: حدثنا أبي، قال: «سمعت أبي كثيراً يتلو سورة الكهف، وكثيراً ما كنت أسمعه يقول: اللهم سَلِّم سَلِّم» [6].

وكذا كان يقول الإمام أحمد [7].

وبينما محمد المنكدر ذات ليلة قائم يصلي إذا استبكى، فكثر بكاؤه،

(١) سورة الحديد، آية ١٦.
(٢) انظر: الحلية، ٣/ ٢١٤.
(٣) السير، ٧/ ٢٧٧.
(٤) انظر: الحلية، ٨/ ٨٦، والمنتظم، ٥/ ٢٦١٧، وسير أعلام النبلاء، ٨/ ٤٢٨.
(٥) سير أعلام النبلاء، ٦/ ٣٠٨.
(٦) سير أعلام النبلاء، ١١/ ٢٢٢.
(٧) سير أعلام النبلاء، ١١/ ٢٠٩.

حتى فزع أهله، وسألوه، فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم، فجاء إليه، فقال: «ما الذي أبكاك؟» قال: «مرّت بي آية» ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (١) فبكى أبو حازم معه، فاشتد بكاؤهما (٢) .

ولعله بقي متأثراً متفكراً متدبراً بهذه الآية العظيمة حتى موته، فقد روى عكرمة بن إبراهيم عن ابن المنكدر أنه جزع عند الموت، فقيل له: «لم تجزع؟» قال: «أخشى آية من كتاب الله: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ (٣) فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب» (٤) .

وقال حماد بن سلمة: «قرأ ثابت البناني: ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾ (٥) وهو يصلي صلاة الليل ينتحب ويرددها» (٦) .

وقال حميد بن عبدالرحمن الرؤاسي: «كنت عند أبي صالح ورجل يقرأ: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ (٧) فالتفت عليٌّ إلى أخيه الحسن، وقد اخضرّ واصفرّ، فقال: يا حسن، إنها أفزاع فوق أفزاع، ورأيت الحسن أراد

(١) سورة الزمر، آية: ٤٧.
(٢) انظر: ترجمة محمد بن المنكدر في سير أعلام النبلاء، ٥/ ٣٥٥.
(٣) سورة الزمر، آية: ٤٦.
(٤) انظر: ترجمة محمد بن المنكدر في سير أعلام النبلاء، ٥/ ٣٥٥.
(٥) سورة الكهف، آية: ٣٧ .
(٦) انظر: السير، ٥/ ٢٤٥.
(٧) سورة الأنبياء، آية: ١٠٢.

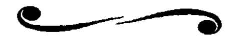
أن يصيح، ثم جمع ثوبه فعض عليه، حتى سكن عنه، وقد ذبل فمه واخضرّ واصفرّ»[1].

وقال إبراهيم بن الأشعث: «ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفُضيل، كان إذا ذكر الله، أو ذكر عنده، أو سمع القرآن، ظهر به من الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى ... وكان دائم الحزن، شديد الفكرة...»[2].

وروى أبو نعيم من طريق أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان – يعني الداراني – يقول: «ربما أقمت في الآية الواحدة خمس ليال، ولولا أني بعد أدع التفكر فيها ما جزتها أبداً»[3].

وروى أبو نعيم بسنده عن أبي العباس بن عطاء – ت ٣٠٩هـ – : «أنه بقي في ختمة بضع عشرة سنة يستروح إلى المعاني مودعها، فمات قبل أن يختمها»[4]. وفي رواية أخرى: «يريد الفهم منها»[5].

وروى ابن عبدالهادي عن صدقة بن إبراهيم المقابري قال: «كان لي ختمة في كل سنة، أتدبر فيها القرآن»[6].



(١) انظر: الحلية، ٧/ ٣٣٠، السيرة، ٧/ ٣٧٠.
(٢) انظر: السير، ٨/ ٤٢٦.
(٣) الحلية، ٨/ ٢٦٢، وانظر: صفوة الصفوة، ٤/ ١٦١.
(٤) الحلية، ١٠/ ٣٠٢، وانظر: صفوة الصفوة، ٢/ ٢٦٨، وتاريخ بغداد، ٥/ ٢٧.
(٥) انظر: صفوة الصفوة، ٢/ ٢٦٨.
(٦) هداية الإنسان، ص ٥٧٦.



تدبر الجن

ولقد ذكر الله تعالى تدبر الجن عندما سمعوا قراءة النبي ﷺ للقرآن الكريم، وقيامهم بدعوة أقوامهم، كما في سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ .... ﴾ [1] فبين أنهم سمعوا من النبي ﷺ وأنصتوا إليه حتى انتهى، ثم ذهبوا إلى قومهم يدعونهم بأنهم سمعوا قرآناً موافقاً لما جاء به موسى من الحق، يرشد إلى الطريق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، وأنهم حثّوا قومهم على الاستجابة لله تعالى، وأن يصدقوا به، فإن فعلوا غفر لهم ذنوبهم وحفظهم من العذاب.

ومما ورد في تدبر الجن وتأثرهم بالقرآن الكريم: ما ثبت عن جابر - رضي الله عنه - قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: لقد قرأتُها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» [2]. لقد ذكرت هذه الآية في القرآن الكريم (٣١) مرة،

(١) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩-٣٢.

(٢) سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب (من سورة الرحمن)، ح ٣٢٩١، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، ح ٢٦٢٤.

ويستنتج من قوله ﷺ أنهم كرروا هذا الجواب (٣١) مرة. وهذه الآية فيها خطاب للإنس والجن في كلمة ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وكذلك في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ وهي برقم (٣١) من سورة الرحمن، وتكرر الخطاب للإنس والجن في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ثلاث مرات في الآيات (٣٢، ٣٥، ٣٩) من سورة الرحمن.

كيفية التفكر في خلق السموات والأرض

أمرنا نبينا ﷺ بالتفكر في خلق الله تعالى، فقد ثبت عنه أنه قال: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عز وجل» [(١)] وعلّمنا كيفية التفكر، إنها حكمة التفكر، وتفكر الحكمة، ولقد بين الله تعالى صفات أولي الألباب، أي العقول السليمة، ومنها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [(٢)].

فهذه المخلوقات الكبرى براهين ساطعة على عظمة الخالق – سبحانه وتعالى – إذ قال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ

---

(١) قواه السخاوي، انظر: المقاصد الحسنة، ص ١٥٩، ح ٣٤٢، وفيض القدير، ٣/ ٢٦٤، وجوّده الحافظ ابن حجر، انظر: الفتح، ١٣/ ٣٨٣، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، ح ١٧٨٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠-١٩١.

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾[1] .

وهـذه الآيـات نتقلـب في نعمهـا، ولا تنفك عنا السموات والأرض ولا الليـل والنهار، فأينما كنا، ومتى كنا، فنحن بين السماء والأرض، ومع الليـل والـنهار، وحيـنما نتفكر هذه العظمة من المخلوقات نردد قوله تعالى المتقدم في سـورة آل عمران، وهو فعل النبي ﷺ ، فقد كان يكرر النظر في السـماء، وكـلما نظر، قرأ هاتين الآيتين، فقد صح عن ابن عباس – رضي الله عـنهما – أنـه بـات عـند النبي ﷺ ذات ليلة، فقام نبي الله ﷺ من آخر الليـل، فخرج، فنظر في السماء، ثم تلا هذه الآية في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حـتى بلـغ: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ثـم رجـع إلى البيـت فتسـوك وتوضـأ، ثـم قـام فصـلى، ثـم اضـطجع، ثـم قـام فـنظر إلى السـماء، ثم رجع فتسوك فتوضأ، ثم قام فصلى[2] .

وبعـد هـاتين الآيـتين ذكـر الله تعـالى تـتمة الدعـاء، ثم ختمه بقوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم ....﴾[3] .

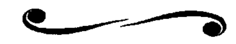
وهـذه بشـرى بالاستجابة لذلك الدعاء، فنسأله تعالى أن يزيدنا تدبراً ويتقبل منا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.
(٢) صحيح المسلم، كتاب الطهارة، باب (السواك)، ١/ ٢٢، ح ٢٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

وقد ثبت عنه ﷺ في هذه الآية أنه قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر بها» ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [1] [2]، وفيها الوعيد لمن لم يتفكر بهذه الآية ونظائرها.

وقد سئل الأوزاعي عن الآية نفسها، ما غاية التفكر فيهن؟ قال: «يقرأهن وهو يعقلهن»، وسأله عبدالرحمن بن سليمان أيضاً قال: «سألت الأوزاعي عن أدنى ما يتعلق به المتعلق من الفكر فيهن ما ينجيه من هذا الويل؟» قال: «فأطرق هينة ثم قال: يقرأهن يعقلهن» [3].



(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٢) أخرجه ابن حبان بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – مرفوعاً، وقال الأرناؤوط: «إسناده قوي على شرط مسلم»، الإحسان، ٢/ ٣٨٧، ح ٦٠٢.

(٣) ذكره ابن عبدالهادي بسنده عنه، هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن،ص ٥٣٥.

تدبر النبي ﷺ بالتسبيح

اعتنى النبي ﷺ بالأذكار، ومنها التسبيح، ومن صفات وصيغ تدبره في التسبيح: ما ورد عنه بعد نزول سورة النصر، فقد صح عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: «ما صلى النبي ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ ﴾ [(١)] إلا وكان يقول فيها: سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» [(٢)].

وألفاظ الذكر في التسبيح التي أثنى عليها رسول الله ﷺ، ما ثبت عن جويرية – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها [(٣)]، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: «نعم»، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وُزِنتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهن: سبحانه الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» [(٤)].

والتسبيح من أحب الكلام إلى الله تعالى كما صح عن النبي ﷺ، وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله

---

(١) سورة النصر، آية: ١ .
(٢) صحيح البخاري، التفسير، سورة النصر، ج ٤٩٦٧.
(٣) أي موضع صلاتها في بيتها.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب (التسبيح أول النهار)، ح ٢٧٦٧.



لملائكته أو لعباده: سبحانه والله وبحمده»[1].

وعند ختام الآية باسم من أسماء الرب وصفاته سبحانه وتعالى، فإنه يليق بها التسبيح؛ لأن فيها التنزيه والمدح لله تعالى قال ابن قيم: «أسماء الرب – تبارك وتعالى – كلها أسماء مدح... وقد وصفها الله بأنها حسنى كلها، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[2] فهي لم تكن حسنى لمجرد الفظ، بل لدلالتها على أوصاف الكمال»[3].

أخرج أبو داود بسنده عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ﴾[4] قال: «سبحان ربي الأعلى»[5][6].

قال المناوي عند هذا الحديث: «وأخذ من ذلك، أن القارئ أو السامع، كلما مر بآية تنزيه، أن ينزه الله تعالى، أو تحميد، أن يحمده، أو تكبير أن يكبره، وقس عليه»[7].

وأخرج أيضاً بسنده عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الآذان، باب (كراهية التسمية بالأسماء القبيحة)، ح ٢١٣٧.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.
(٣) انظر: جلاء الإفهام، ص ١٠٨.
(٤) سورة الأعلى، آية: ١ .
(٥) السنن، الصلاة، باب (الدعاء في الصلاة)، ح ٨٨٣.
(٦) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ح ٧٨٥.
(٧) فيض القدير، ٥/ ١٥٦.

يتأول القرآن»[1].

قال السهارنفوري: «يتأول القرآن، حال من فاعل، يقول: أي يبين المراد من قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾[2] آتياً بمقتضاه من آل الشيء إلى كذا، فحاصله أنه يرجع إلى العمل بما في القرآن»[3].

وقد أخرج ابن أبي شيبة بأسانيده عن إبراهيم النخعي، وطاووس، ومجاهد: أنهم كانوا يدعون في الفريضة بما في القرآن[4].

ومن صيغ التسبيح الواردة في القرآن، ما ذكره الله تعالى في الرد على افتراء المشركين، إذ علّمنا سبحانه كيف ننزهه عما يقوله المشركون، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾[5].

فهذه الآية الثانية صيغة من صيغ التسبيح، عندما يقرأ المؤمن ما قصه الله تعالى عن المشركين والرد عليهم، فينبغي أن ننزهه سبحانه وتعالى بما علمنا الحكيم العليم.

أو بصيغة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[6].

---

(١) السنن، الصلاة، باب (الدعاء في الركوع والسجود)، ح ٨٧٧، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، ح٧٨٠ .
(٢) سورة النصر، آية: ٣ .
(٣) بذل المجهود، ٥/ ١٥٠.
(٤) المصنف، الصلوات، باب (من كان يستحب أن يدعو في الفريصة بما في القرآن)، ٢/ ٢٩٨.
(٥) سورة الإسراء، الآيتان: ٤٢-٤٣.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٨٢.

التدبر بالشكر

من الحكمة الشكر لله تعالى، إن الشكر لله تعالى وحمده – سبحانه وتعالى – هو من الحكمة التي آتاها الله تعالى للعبد الصالح لقمان – رحمه الله – إذ أكد سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾[1].

إن هذا التدبر لهو حكمة التفكر وتفكر الحكمة.

وقد حثنا – سبحانه وتعالى – على الشكر في آيات كثيرة من القرآن، وخصوصاً عند ذكر رحماته التي لا تعد ولا تحصى؛ والعلة من ذلك أن نشكره، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[3] ويحث أيضاً بقوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾[4] وبقوله: ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[5].

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٦٨-٧٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٣.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨٠.

(٥) سورة يس، الآية: ٣٥.

وقولـه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (١) فالغاية من عرض ونزول هذه الرحمات: هو الشكر لـه سبحانه وتعالى، وقد وعدنا على ذلك بالثواب منه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (٢) وتارةً يعلق الشكر بالعبادة بعد ذكر نعمه، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (٣).

وقـد وعد سبحانه بالزيادة، ووعده حق، قال الإمام ابن قيم الجوزية: «والشـكر معـه المـزيد أبداً، لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٤) فمتى لم تر حالك في مزيد، فاستقبل الشكر» (٥).

وهكـذا فمن التدبر عند هذه الآيات الكريمة: أن نثني عليه – سبحانه وتعـالى – بالحمد والشكر والتسبيح، وأن لا نقتصر على القول، بل نشكره أيضاً بالأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ ﴾ (٦).

وكمـا صح عن المغيرة أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: «غفـر الله لـك مـا تقـدم مـن ذنـبك ومـا تأخـر» قـال: «أفـلا أكون عبداً

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.
(٤) سورة إبراهيم، آية: ٧ .
(٥) مدارج السالكين، ٢/ ٢٤٦.
(٦) سورة سبأ، آية: ١٣.

شكوراً»[١].

قال الإمام ابن قيم الجوزية عن منزلة الشكر: «وهي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة (الرضى) وزيادة، فالرضى متدرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه، وهو نصف الإيمان... والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر... وحقيقته في العبودية، هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده، ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه، شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه، انقياداً وطاعة، والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره...»، وقال أيضاً: «الشكر: اسم لمعرفة النعمة؛ لأنها السبيل إلى معرفة المنعم»[٢].

وقد أفرد موضوع الشكر بمصنفات منها:

(الشكر) لابن أبي الدنيا، ت ٢٨١هـ .

(فضيلة الشكر) لأبي بكر محمد بن جعفر الخرائطي ، ت ٣٢٧هـ ، وكلاهما مطبوع محقق.

وأختم هذا بالأدب القرآني، فقد أوصانا الله تعالى بالشكر، وعلمنا كيف ندعوه، وكيف نكون من الشاكرين في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ

(١) صحيح البخاري، التفسير، باب (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك)، ح ٤٨٣٦.

(٢) مدارج السالكين، ٢/ ٢٤٢-٢٤٧.



وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾[1] ، وبهذا الدعاء كان سليمان – عليه السلام – يلهج: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾[2] .

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ١٩.

كيف يتم القبول عند الله تعالى ؟

وبعد هذه الوصية العظيمة التي أوصى الله تعالى الإنسان بها، وهذا التعليم الحكيم، بشّر سبحانه وتعالى بالقبول، وأشار إلى علو مكانة من يعمل بهذه الوصية في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [1]، فالإشارة هنا بالبعيد؛ لبيان علو وسمو مكانة أولئك الذين عملوا بتلك الوصية الربانية.

وعرفنا بذلك كيف يتقبل الله تعالى أحسن الأعمال، وذلك عندما يجتمع التوحيد والاستقامة والشكر والعمل الصالح والتوبة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [2] ثم أشار إلى القبول في الآية التي بعدها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأحقاف، الآيات: ١٣-١٥.

ﱡﭐ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﱠ(1).

وكذلك بيّن كيف يتم القبول عندما يستجيب لعباده المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾(2).

فأخبر سبحانه وتعالى أن هذا المخلوقات التي ذكرها، براهين ساطعة لأرباب العقول السليمة، الذاكرين الله تعالى في كثير من أحوالهم، الذين

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٩٠- ١٩٥.

يؤمنون بالله تعالى ويدعونه ويطلبون منه المغفرة، ثم بين أنه استجاب لهم.

وهـذا مـن فضله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا كيفية القبول والاستجابة. حـتى نزداد تفكراً في مخلوقاته العظيمة والتي نتقلب في خيراتها ونعمائها ثم تزداد عبادة وطاعة له سبحانه وتعالى.

التدرج بالتلاوة لتحقيق التدبر

لقد ساعد نزول القرآن منجماً على سهولة تدبره، وأول ما نزل من القرآن: خمس آيات من سورة اقرأ.

وقال الحافظ ابن حجر: «أخرج ابن أبي داود عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه كان يقرأ القرآن خمس آيات خمس آيات» وأسند من وجه آخر عن أبي العالية مثل ذلك، وذكر أن جبريل كان ينزل به كذلك، وهو مرسل جيد، وشاهده ما قدمته في تفسير المدثر، وفي تفسير سورة اقرأ [(١)].

قال الحافظ ابن كثير: «واستحب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يُلَقّن خمس آيات ورويناه عنه بسند جيد» [(٢)].

وثبت أيضاً عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن، حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» [(٣)].

ونستنتج مما تقدم: أن التدرج كان ما بين خمس آيات إلى عشر آيات، وأن همة الصحابة رضي الله عنهم كانت أقوى، وفي الحالتين، يتبين قلة عدد الآيات التي تحفظ وترسخ في الأذهان رسماً وحفظاً وفهماً، ثم تتحول إلى العمل بالجوارح آداباً وأحكاماً. وبهذا العمل في العالم الإسلامي غالباً في مراكز تحفيظ القرآن الكريم.

---

(١) انظر: فتح الباري، ٨/ ٧٠٧، ط شيبة.

(٢) فضائل القرآن، ص ١١٩.

(٣) تفسير الطبري، رقم ٨١، وشعب الإيمان، ٤/ ٥١٠، رقم ١٨٠١، والمستدرك للحاكم ١/ ٥٥٧.

الفهم والتدبر هو الغاية من التلاوة

قال الإمام النووي: «فإذا شرع في القراءة، فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر، وأشهر وأظهر من أن تذكر، فهو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب»[(١)].

وكان زيد بن ثابت – رضي الله عنه – وهو أحد كتاب الوحي – يرى عدم التسرع في ختم القراءة؛ لكي يتدبر ويقف على الآيات والمعاني التي ينبغي أن يقف عليها، فقد أخرج أبو عبيد، والفريابي كلاهما عن قتيبة، عن مالك بن أنس، عن يحيي بن سعيد أنه قال: «كنت أنا ومحمد بن يحيى بن حباب جالسين، فدعا رجلاً، فقال: أخبرني بالذي سمعت من أبيك؟ فقال الرجل: أخبرني أبي أنه أتى زيد ابن ثابت، فقال له: كيف ترى قراءة القرآن في سبع؟ فقال زيد: حسن، ولئن أقرأه في نصف شهر أو عشرين أحب إليّ، وسلني لم ذاك؟ فقال: إني أسألك؟ قال: لكي أتدبره وأقف عليه»[(٢)].

إنه الكيف، وليس الكم، فالعبرة بالتدبر، وليس بكثرة القراءة، أما إذا اجتمع الأمران، فنور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، نسأل الله

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٦٥.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص ١١١، وفضائل القرآن للفريابي، ص ٢١٧.

تعالى أن يشملنا بنوره، آمين.

قال القرطبي: «وأكثر العلماء يستحبون الترتيل في القراءة، ليتدبره القارئ ويفهم معانيه» [(١)].

قال الآجري في ذكر أخلاق العالم فيما بينه وبين ربه عز وجل: «همه في تلاوة كلام الله الفهم عن مولاه، وفي سنن الرسول ﷺ الفقه؛ لئلا يضيع ما أمر به متأدب بالقرآن والسنة، لا ينافس أهل الدنيا في عزها، ولا يجزع من ذلها، يمشي على الأرض هوناً بالسكينة والوقار، ومشتغل قلبه بالفهم والاعتبار، إن فرغ قلبه عن ذكر الله فمصيبة عنده عظيمة، وإن أطاع الله عز وجل بغير حضور فهم، فخسران عنده مبين، يذكر الله مع الذاكرين ويعتبر بلسان الغافلين...» اهـ، ثم استدل لذلك من القرآن والتفسير [(٢)].

وروى بسنده عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: «ألا أنبئكم بالفقيه، حق الفقيه؟ من لم يُقنِّط من رحمة الله، ولم يرخِّص لهم في معاصي الله، ولم يؤمِّنهم مكر الله، ولم يترك القرآن إلى غيره، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في تفقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر» [(٣)].

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار، ص ٥٥.

(٢) أخلاق العلماء، ص ٤٧– ٤٩.

(٣) أخلاق العلماء، ص ٥٢.

إن التلاوة حق التلاوة لا تقتصر على القراءة والترتيل فقط، وإنما تنبثق عن فهم وعمل.

وقد ثبت عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى:﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه» (١).

وثبت عن مجاهد مثله، وثبت عن الحسن البصري: «يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه» (٢).

وقال القرطبي عن تلاوة القرآن: «فمن قرأ قراءة تدبر وتفهم، وعمل بمقتضاه، فقد حصل الغاية القصوى، التي ليس لأحد وراءها مرمى» (٣).

يتبين لنا مما تقدم: أن التدبر أمره مهم، وأنه الغاية الكبرى من تلاوة القرآن وسماعه.

وقد صح عن النبي ﷺ مكانة الماهر بقراءة القرآن، بأنه مع السفرة الكرامة البررة (٤).

وهذه بشرى للذي يقرأ بتدبر وتأمل وفهم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسير سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٢) رواه المرزوي في تعظيم قدر الصلاة، ١/ ٣٩٦، رقم ٣٨٤، أخرجه أبو عبيد القاسم ابن سلام بسند حسن عن الحسن، وأخرجه الطبري في تفسيره،١/ ٢٥٠، والرازي في فضائل القرآن وتلاوته، ص ١٢٦.

(٣) التذكار في أفضل الأذكار، ص ٥٤.

(٤) انظر: فتح الباري، ٨/ ٦٩١، كتاب التفسير.

قال القرطبي: «ولا يكون ماهراً بالقرآن حتى يكون عالماً بالفرقان، وذلك بأن يتعلم أحكامه، فيفهم عن الله تعالى مراده، وما فرض عليه، ويعرف المكي من المدني؛ ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخر الإسلام... ثم ينظر في السنن المأثورةالثابتة عن النبي ﷺ، فبها يصل الطالب مراد الله عز وجل، وتفتح له أحكام القرآن فتحاً... فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن، كان ماهراً، وهو الكمال، والماهر: الحاذق بالشيء والعالم به» [1].

هذا، وقد وردت عدة أحاديث صحيحة ومشهورة فيها الأمر بتحسين الصوت، ذكرها الحافظ ابن كثير في كتاب فضائل القرآن، ثم قال: «والغرض: أن المطلوب شرعاً إنما هو تحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة...» [2].

فينبغي أن نجتهد عند قراءة القرآن الكريم بيقظة العقل، وعدم شرود الذهن، والصبر على ذلك، والتذكر بعظيم ثواب القراءة والتدبر وفوائدها في الدنيا والآخرة، فإن يقظة العقل وحضوره مع النية الصادقة فيها ثمرات عظيمة.

قال المحاسبي: «فإذا أحضرت عقلك بجمع همك بنية صادقة مع أمل ورجاء أن تنال ما قال، وتسارع إلى محابه، وتتجنب مساخطه، وتريده

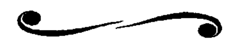
---

(١) انظر: التذكار في أفضل الأذكار، ص ٥٢-٥٣.

(٢) ص ٩٨.



وحـده، ولا تـريد أن تفهـم مـنه مـا تتصنع به عند العباد، فإذا نظر الله عز وجـل إلـيك وأنـت كذلـك، وعـلم ذلك من ضميرك، أقبل بلطفه، وولي تقويـم عقلـك بفهـم كلامـه، ومـا فـيه من علم الغيوب، ومكنون الوعيد، فحينئذ تكون للقرآن مفهماً، فتستنطق منه علم ما عميت عليك فيه الحجة، فيوضـح الله لـك بـه الـبرهان، ويمـدك بـالفوائد، ويجلي عنك ظلم الشبه، ويدلـك على محجة المهتدين، ويذيقك الحلاوة التي أذاقها أهل التقوى، لأن كلامـه ربـيع قلوب الأبرار، ويثقل فهمه على من تعطل قلبه... فإذا أقبلت عـلى الله تعـالى بصدق نية ورغبة لفهم كتابه باجتماع هم، متوكلاً عليه أنه هـو الـذي يفـتح لك الفهم، لا على نفسك فيما تطلب، ولا بما لزم قلبك من الذكر، لم يخيبك الفهم والعقل عنه – إن شاء الله – »[1] .



(١) انظر: فهم القرآن، ص ٣٢٢-٣٢٤.

التدبر بفهم معاني القرآن

من أهم أساليب التدبر: فهم معاني كلام الله عز وجل، حتى يجيد القارئ الاستجابة لله تعالى، وحتى يضمن زيادة الإيمان.

وقد ذكر الحارث المحاسبي كيفية فهم معاني ما نقرأ من القرآن وما نسمع، فأورد السؤال، ثم أجاب، قال: بإحضار عقلك، فبذلك تفهم وتذكر، ألم تسمعه عز وجل يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [1].

قال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ ، لا يحدث نفسه بغير ما يسمع، وهو شهيد. قال: شاهد القلب.

قلت: فكيف أحضر عقلي حتى يكون شاهداً لا يغيب عن فهم كلام ربي جل وتعالى؟

قال: بأن تجمع فهمك، حتى لا يكون فهمك متفرقاً في شيء غير طلب الفهم لكلام مولاك.

قلت: وكيف أجمع فهمي حتى لا يتفرق في شيء سوى ذلك؟

قال: تمنع عقلك من النظر في شيء سوى طلب فهم كتاب ربك جل وتعالى.

---

(١) سورة ق، آية: ٣٧ .

قلت: وكيف أجمع عقلي؟

قال: بأن لا تشغل جوارحك بما لا يشتغل به عقلك، وأن تستعمل كل جارحة بما يعينك على الفهم، كنظرك في مصحف، واستماعك إلى تلاوتك، أو تلاوة غيرك، وتمنع عقلك من كل فكر وذكر، يقوى طلب فهم كلام مولاك؛ لأنك إذا لم تشغل جوارحك بشيء غير ذلك، ومُنع عقلك عن النظر والفكر في غير ذلك، اجتمع همك وحضر، وإذا حضر عقلك زكا ذهنك، وإذا زكا ذهنك قويت على طلب الفهم، واستبان فيه اليقين، وصفا فيه الذكر، وقوي فيه الفكر، وبذلك مدح المستمعين لتلاوة كتابه بالفهم، فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ [1] مدحهم بأن سكتوا عن الكلام لئلا يشتغلوا عن فهم ما يتلو نبيه - عليه السلام - عليهم، ولم يعلموا ما فيه وما هو، فلما قضى وفهموا عن الله عز وجل ما تلا عليهم نبيه - عليه السلام - ولوا إلى قومهم منذرين (تحدثوا)، وفهموا من الله عز وجل ما سمعوا، فقالوا: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ [2] وقالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا

---

(١) سورة الأحقاف، آية: ٢٩ .

(٢) سورة الأحقاف، الآيات: ٣٠-٣٢ .

عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [1].

لقد نطقوا بالحكم عن فهم بين، وعن عقول ذكية في استماع آيات في مقام واحد، فدعوا إلى إجابة الله عز وجل، وأملوا المغفرة والنجاة من العذاب الأليم، وأخبروا أنه من أعرض عما تلا نبيه ﷺ من كلام عز وجل لا يعرف الله، وأن مصيره إليه [2].

إن ما ذكره المحاسبي خطوات عملية يجب أن نقوم بها، حتى نصل إلى ميدان التدبر، فهي خطوات ضرورية لمن رام إلى ذلك المقام المنشود.

---

(١) سورة الجن، آية: ١ – ٢.

(٢) فهم القرآن، ص ٣١٨-٣٢٠.

التدبر ببيان القرآن بالقرآن

لقد أنزل الله تعالى القرآن منجماً حسب الوقائع والحوادث، وقد ساعد ذلك على فهمه وبيانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]، ومعنى ﴿فُصِّلَتۡ﴾ أي: بينت[3].

وعندما تتأمل آيات الله تعالى نجد حشداً كبيراً مبيناً آيات أخرى، وأكثره يأتي متصلاً، فنرى تفسير الآية بالآية التي بعدها، وقد يكون التفسير بآية واحدة أو بأكثر من آية، ومثاله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾[4] فبين سبحانه وتعالى ما هو الطارق؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾[5] بينتها الآيات التي بعدها، قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾[6]، والأمثلة تربو على عدة مئات من الآيات.

إن التأمل في اتصال الآيات فيما بينها يمكننا من استنباطات

(١) سورة فصلت، الآية: ٣.
(٢) سورة هود، الآية: ١.
(٣) انظر: التفسير الصحيح، ٤/ ٢٦٩.
(٤) سورة الطارق، آية: ١-٣ .
(٥) سورة المعارج، الآية: ١٩.
(٦) سورة المعارج، الآيتان: ٢٠-٢١.

لمعلومات مبتكرة، منها: في أسباب النزول، فنستنبط أسباب لم يذكرها أرباب هذا العلم، وذلك في الآيات التي فيها الحوار والسؤال للنبي ﷺ من قبل الصحابة - رضي الله عنهم - أو من غيرهم من المشركين وأهل الكتاب، وذلك في الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ ويأتي بعدها: ﴿ قُلْ ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ (١)، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ﴾ (٢)، فالآية الأولى فيها: ﴿ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ سبب نزولها: هو السؤال عن الأهلة، وأما الآية الثانية:﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾ الآية، فسبب نزولها: السؤال عن الكلالة، وهكذا، فعدد الآيات التي ورد فيها لفظ يسألونك: خمس عشرة آية، ما عدا يستفتونك.

أما أمثال آيات الحوار، فهي أكثر مما تقدم بكثير، منها، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٩.

(٢) سورة النساء، أواخرها.

(٣) سورة الإسراء، الآيات: ٤٩-٥١.

فالآيـة رقـم (٥٠) و (٥١) نزلـتا بسـب قولهم المذكور في آية (٤٩): ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ .

وكذلـك استنباط المناسبات، كل ذلك بتدبر الآيات المتصلة، والسور المتصـلة، أمـا معرفة الغريب الذي لم يذكره القرآن الكريم، وكذلك الناسخ والمسـنوخ، فإنـه لا بـد مـن الـرجوع إلى كتـب التفسـير المعتـبرة، والمأثورة الصحيحة.

ومـن الكتب المعتبرة في تفسير القرآن بالقرآن التي تساعد على التدبر في هـذا المطلـب هـو كتاب «أضواء البيان» للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.



التدبر بأذكار القرآن الكريم

لقد رغبنا الله تعالى أن نذكره في قوله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾[1]، وفيه بيان للمكانة المرموقة التي يتبوأها الذين يذكرون الله تعالى، فإنهم في معية الله تعالى، بذكره سبحانه سينالون هذا المقام العظيم، إذ وعد بأنه سيذكرهم، بل سيذكرهم في ملأ خير منهم، كما بشر النبي ﷺ في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم...»[2].

ولقد أمر الله تعالى بالإكثار من الذكر بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[3].

وهنا لا بد من الاستجابة لهذا النداء المبارك، بأن نكثر من ذكره الوارد في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، فإن جزاء هذه الاستجابة عظيم في الدنيا والآخرة، ومما يؤكد على خطورة هذه الاستجابة، أن من صفات الكفار أنهم لا يستجيبون لذلك: ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٢) صحيح البخاري، التوحيد باب (قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾)، ح ٧٤٠٥، وصحيح مسلم، الذكر ، باب (الحث على ذكر الله تعالى)،ح ٢٦٧٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [(١)] ، والمنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [(٢)] ، ولا شك أن هذا من ديدن الشيطان الذي يصد عن ذكر الله تعالى: ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [(٣)] .

فيجب على المؤمن أن لا يتصف بهذه الصفة، بل يذكر الله تعالى كثيراً؛ كي ينال ما سبق من مقام؛ وكي يطمئن قلبه: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [(٤)] ، والذكر بالقلب، واللسان، والجوارح.

قال الإمام النووي: «اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر الله تعالى، كما قال سعيد بن جبير وغيره من العلماء»، وقال أيضاً: «الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدها فالقلب أفضل، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعاً، ويقصد به وجه الله تعالى، وقد قدمنا عن الفضيل – رحمه الله – أن ترك العمل لأجل الناس رياء، والمراد من الذكر: حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر،

(١) سورة الصافات، الآية: ١٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٩١.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب، كما هو مطلوب في القراءة؛ لاشتراكهما في المعنى المقصود، ولهذا كان المذهب الصحيح المختار، استحباب مد الذاكر قول: (لا إله إلا الله)؛ لما فيه من التدبر»[1].

وهذا الذكر له آثار عظيمة في تفريج الكروب واطمئنان القلوب، فهذا نبي الله أيوب - عليه الصلاة والسلام - قد فرج الله كربته: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[2]، فقد كان ذكره: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وتدبر هذه الأذكار من القرآن الحكيم تسعفنا في إزاحة الهموم وإزالة الكروب.

قال سلطان العلماء العز بن عبدالسلام: «وأفضل الأذكار ما صدر عن استحضار صفات الكمال ونعوت الجلال، ودونهما ذكر الإنعام والأفضال الذي هو وسيلة إلى الحب والشكر، وذكر الثواب والعقاب اللذين هما وسيلتان إلى ترك العصيان، ليسا بمقصودين إلا للحث على الطاعة والإيمان... والأذكار المشروعة أفضل من الأذكار المخترعة، وكذلك الاقتصار على الدعوات الصحيحة المشروعة أولى من الدعوات المجموعات، وإن كانت جائزة، وكذلك التعبير عن معاني القرآن بما جاء فيه من الكلمات أولى من التعبير عن ذلك بالمراجعات، إلا أن يكون

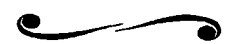
---

(١) الأذكار، ص ٦-٩.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣-١٤٤.

الغرض البيان»[1].

وقد وردت أدعية كثيرة في القرآن الكريم جمعت في كتب الأذكار والدعاء، وعند تلاوة القرآن الكريم نمر بها كلها، ونقف عندها حتى ندعو بها، فإنه تعليم من العليم الحكيم.



(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٢/ ١٧٠-١٧١.

كيف يتم التدبر والتأثر بالقرآن ؟

إن التأثر بالقرآن الكريم من أهم القضايا في حياتنا اليومية لمن ينشد الحياة الطيبة؛ وذلك لما فيه من الطمأنينة القلبية، والراحة النفسية، والارتقاء إلى درجاتٍ عليا من الإيمان، واستجلاب التأثر لا بد من حضور القلب، وإصغاء السمع، وهذا التأثير لا يقتصر على المسلمين قط، فقد أثر في غيرهم، وغيَّر مجرى حياتهم، وإليك صورة لهذا التأثر التي حظيت به المرأة الإنكليزية (عائشة برجت هوني) إذ تقول: «لن أستطيع مهما حاولت أن أصف الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكد أنتهي من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق الكون، فكانت هذه أول صلاة لي في الإسلام»[1] .

ولقد اعتنى العلماء بكيفية التدبر للقرآن الكريم والتأثر به، ولكل وجهة، لكن الغاية واحدة، ألا وهي: الاستجابة لله عز وجل لما في القرآن الكريم.

عن مسلم الخواص قال: «كنت أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من رسول الله ﷺ . قال: فجاءت حلاوة قليلة، ثم قلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من جبريل – عليه السلام – حين أخبر به النبي ﷺ . قال: فازدادت الحلاوة، ثم قلت

(١) رجال ونساء أسلموا، ١/ ٥٩-٦٠.



لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من الله – سبحانه وتعالى – حين تكلم به، فجاءت الحلاوة كلها»[1].

إن هذا الفعل لهو غاية التأمل وتأمل الغاية.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن: فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾[2]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد، فقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به: القلب الحي الذي يعقل عن الله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾[3] أي: حي القلب، وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي: شاهد القلب، حاضر غير غائب، قال ابن

---

(١) انظر: الحلية، ٨/ ٢٧٩، وصفوة الصفوة، ٤/ ١٩٣.
(٢) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٣) سورة يس، آية: ٦٩ – ٧٠ .

قتيبة: «استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه»، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله، فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن، والمحل القابل، وهو القلب الحي، ووجد الشرط، وهو الإصغاء، وانتفى المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر» (١).

إذا حصل التأثير في القلب فإنه سيؤثر على بقية الأعضاء، وربما تأثرت العين بالبكاء، فحينما تذرف دموعها من خشية الله تعالى، فإنه دليل حسي على حصول التدبر والتأثر، ولنرى تأثر النبي ﷺ ومن بعده.

(١) الفوائد، ص ٩-١٠.

البكاء من التأثر بسماع القرآن الكريم

وبعض الأحيان كان يبكي ﷺ عند سماعه لبعض الآيات، وفيه تعبير وبيان لهول الموقف في تلك الآيات، فقد ثبت عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال له النبي ﷺ : «اقرأ عليّ»، قلت: «أقرأ عليك، وعليك أنزل؟»، قال: «فإني أحب أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾»، قال: «أمسك»، فإذا عيناه تذرفان[(١)].

هذا البكاء يوحي إلى خطورة هذا الموقف وهيبته، إذ الخلائق على صعيد واحد، والأنبياء يشهدون على أممهم، ثم يشهد عليهم نبينا محمد ﷺ وأمته.

وهكذا كان شدة تأثر الصحابة – رضي الله عنهم – عند تلاوة القرآن الكريم.

أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام بأسانيد ثابتة عن عبيد بن عمير قال: «صلى بنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – صلاة الفجر، فافتتح سورة يوسف، فقرأها حتى بلغ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ بكى، حتى انقطع، فركع»[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري تفسير سورة النساء، باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد)، ح ٤٥٨٢.

(٢) فضائل القرآن، ص ١٣٧، تحقيق: مروان العطية.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبدالله بن أبي مليكة قال: «صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، وكان إذا نزل قام شطر الليل، قال: فسأله أيوب: كيف كانت قراءته؟ قال قرأ: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [1]، فجعل يرتل، ويكثر من ذاكم النشيج» [2].

أخرج البخاري بسنده عن عائشة – رضي الله عنها – : «... ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجداً بفناء داره، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن فيتقصف عليه [3] نساء المشركين وأبناءهم، يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن» [4].

قال الإمام النووي: «وعن أبي صالح قال: قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر – رضي الله عنه – فجعلوا يقرؤون القرآن ويبكون، فقال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – هكذا كنا».

وقال أيضاً: «قال الإمام أبو حامد الغزالي: البكاء مستحب مع القراءة وعندها».

قال: «وطريقه في تحصيله، أن يحضر قلبه الحزن، بأن يتأمل ما فيه من

---

(١) سورة ق، الآية: ١٩.

(٢) الزهد، ص ٢٧٨، رقم ١٠٤٣. والنشيج: صوت معه توجع وبكاء كما يردد الصبي بكاءه في صدره (قاله ابن الأثير في النهاية ٥/ ٥٣).

(٣) أي: يزدحم.

(٤) صحيح البخاري، الكفالة، باب (جوار أبي بكر)، ح ٢٢٩٧.

التهديد والوعيد الشديد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في ذلك، فإن لم يحضره، حزن وبكى ... فليبك على فقد ذلك، فإنه من أعظم المصائب»[1].

---

(١) التبيان، ص ٦٩.

لماذا عدم التأثر؟

أما الذي لا يتأثر، فهو كالجثة الهامدة، يقول الأستاذ الفرنسي المسلم الذي تأثر بالقرآن (فنساي مونتاي المنصور بالله الشافعي): «إن مثل الفكر العربي الإسلامي المبعد عن التأثير القرآني، كمثل رجل أفرغ من دمه» [1].

قال فضل الرقاشي: «وأي عين لا تهمل على حسن الصوت بالقرآن إلا أعين غافل، أو لاهٍ» [2].

أخرج ابن عساكر من طريق جعفر بن ميمون عن أبي العالية قال: «سيأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، وتبلى كما تبلى ثيابهم وتتهافت، فلا يجدون له حلاوة، ولا لذاذة» [3].

وقد روى نحوه الخطيب البغدادي من رواية الصحابي حذيفة [4].

وهذه المصيبة نشكو ويشكو منها الكثير، وفي هذه المناسبة تأتي سؤالات:

لماذا لا توجل القلوب بذكر الله تعالى؟ وقد ذكر الله تعالى في القرآن

(١) رجال ونساء أسلموا، ٥/ ٥١.

(٢) انظر: الرقة والبكاء، لابن أبي الدنيا، ص ٩٤، والحلية، ٦/ ٢٠٧.

(٣) انظر: تاريخ دمشق، ١٨/ ١٨١.

(٤) انظر: تاريخ بغداد، ١/ ٤٠٠.

(١٠٦٢٠) مرة، أحصاها ، ا. د. محمد عبدالله دارز [1] .

لماذا لا تطمئن القلوب بذكر الله تعالى؟

كم من الآيات نهذها هذاً؟

كم من الأوامر عصينا؟

كم من النواهي أهملنا؟

كم من المواعظ تركنا؟

كم من السؤالات عنها سكتنا؟

كم من الحكم فاتتنا؟

الجـواب: أنها كثيرة، ولعل العلاج هو: ما سبق في كيفية التأثر بقراءة القرآن الحكيم، وما سيأتي في تدبر أحكام القرآن.



---

(١) دستور الأخلاق في القرآن، ص ٤٨٦.

التدبر عند الآيات التي فيها استفهام

لقد ورد في القرآن الكريم سؤالات كثيرة في قضايا خطيرة، وعلّمنا الله تعالى كيف نجيب، وكذلك أرشدنا النبي ﷺ إلى تدبر هذه السؤالات، وماذا ينبغي أن نقول، وبماذا نجيب، وفي ذلك نحقق بعض الاستجابة المطلوبة منا، فقد أمرنا الله تعالى بالاستجابة له مطلقاً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [1].

وأخرج أبو داود أيضاً بسنده عن موسى بن أبي عائشة قال: «كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ۝٤٠﴾ [2] سبحانك فبلى [3]، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ».

قال أبو داود: «قال أحمد: يعجبني في الفريضة أن يدعو بما في

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٢) سورة القيامة، آية: ٤٠ .

(٣) قال الألباني: «كانت في المطبوع: (فبكى)، والذي في المخطوطتين ما ذكرت، ونقل عن الشيخ محيي الدين عبدالحميد في نسخه معتمدة: (فبلى) باللام بدل الكاف، قال ابن رسلان: وأكثر النسخ المعتمدة باللام بدل الكاف، وبلى حرف جواب، يقصد به إثبات ما بعد النفي، أي: أنت قادر»، صحيح سنن أبي داود ١/ ١٦٨، وبلفظ: (بلى) أخرجه البغوي من حديث أبي هريرة مرفوعاً، ومن طريق موسى بن أبي عائشة أيضاً به، شرح السنة، ٣/ ١٤٠، وباللام أيضاً: في نسخة السنهارنفوري، بذل المجهود، ٥/ ١٥٦.

القرآن»[1]، وصححه الألباني[2].

قال الألباني: «وهو مطلق، فيشمل القراءة في الصلاة، وخارجها، والنافلة، والفريضة، وقد روى ابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري والمغيرة أنهما كانا يقولان ذلك في الفريضة، ورواه عن عمر وعلي إطلاقاً»[3].

قال السهارنفوري في بيان كلمة الإمام أحمد «يعجبني في الفريضة أن يدعو المصلي بها»أي: «بالدعوات التي نزلت في القرآن، وإن جاز أن يدعو بالدعوات التي وردت في الحديث»[4].

قال المناوي بعد أن ذكر الحديث: «لأنه قول بمنزلة السؤال، فيحتاج إلى الجواب، ومن الخطاب أن لا يترك المخاطب جوابه، فيكون السامع كهيئة الغافل، أو كمن لا يسمع إلا دعاء ونداء من الناعق به: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[5] فهذه هبة سنية، ومن ثم ندبوا لمن مر بآية رحمة أن يسأل الله الرحمة، أو عذاب أن يتعوذ من النار...»[6].

---

(١) السنن، الصلاة، باب (الدعاء في الصلاة)، ح ٨٨٤.
(٢) صحيح سنن أبي داود، ح ٧٨٦، ونسبه للبيهقي أيضاً بسند صحيح، (صفة صلاة النبي ﷺ، ص ٧).
(٣) صفة صلاة النبي ﷺ، ص ٧٦.
(٤) بذل المجهود، ٥/ ١٥٧.
(٥) سورة البقرة، آية: ١٧١.
(٦) فيض القدير، ٥/ ١٥٦.



وهذا التدبر أدب نبوي يؤيده القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [1]، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [2]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ﴾ [3]، ففي هذه الآيات الثلاث ورد السؤال ثم الجواب بلفظ: بلى.

قال الإمام البغوي: «وروي عن علي – رضي الله عنه – أنه قرأ في الصلاة بالليل: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [4] قال: بل أنت يا رب، ثلاثاً، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾، ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [5].

أما ما ورد من الاستفهام في الآيات التي ورد فيها قوله تعالى: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ ﴾ [6]، فنجيب بالتسبيح، وكلمة التوحيد، ففيه تنزيه له سبحانه وتعالى، وفيه الاستجابة له سبحانه بكلمة التوحيد، وكذلك نذكر

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.
(٢) سورة يس، الآية: ٨١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.
(٤) سورة الواقعة، الآيتان: ٥٨-٥٩.
(٥) شرح السنة، ٣/ ١٠٥.
(٦) تكررت في سورة النمل خمس مرات، الآيات: ٦٠-٦٤.

كلمة التوحيد والتسبيح عند ورود ذكر افتراء المشركين على الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] ، وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2] ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ [3] .

وهكذا كلما تأملنا في القرآن العظيم، نجد التوجيهات الربانية لأسس التدبر.

والجواب بلفظ: (سبحانك فبلى) يصلح لكثير من الآيات التي ورد فيها الاستفهام مع ليس، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4] ، وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [5] ، وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [6] ، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) سورة الروم، الآية: ٤٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.
(٣) سورة النحل، الآيتان: ٢٥-٢٦.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٦٨.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

وَٱلۡأَرۡضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ﴾ [1] ، وقولـه تعـالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [2] ، وقولـه تعـالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [3] ، وقولـه تعـالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَـٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾ [4] ، وقولـه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [5] .

وكذلـك في كثير من الاستفهام من غير اقتران بكلمة (ليس)، كما في قولـه تعـالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [6] .

فهذا الاستفهام يقف القارئ عنده ويتدبره، ثم يجيب الله تعالى بذلك اللفـظ: (سبحانك فبلى) إنه تنزيه وإجابة على السؤال، قياساً على ما سبق مـن الـرواية، واقتباسـاً ممـا ورد في الآيـة، ممـا يجعـل القـارئ منتبهاً لمعاني الآيـات ومقاصـدها، فيـبقى ذهـنه مـتعلقاً بالقـرآن، ويكـون مسـتجيباً لله تعـالى، قـال الله تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [7] ، وهكـذا في كـثير مـن الآيـات الـتي تـبدأ بقولـه: ﴿أَفَلَا﴾ ،

---

(١) سورة يس، الآية: ٨١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة التين، الآية: ٨.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

(٦) سورة القيامة، الآيتان: ٣-٤.

(٧) سورة الأنفال، آية: ٢٤ .

ومـــنها: ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [1] إذ ورد بعدها التسبيح في الآية التي تليها، فينبغي أن نشكره على نعمه.

وقـد كـان سـفيان الـثوري يعمل بمثل هذا التدبر، فقد روى ابن أبي الدنـيا عـنه أنـه كـان يقـرأ قولـه تعـالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ ﴾ [2] ، ثـم يقـول: «بـلى يـا رب»، وينتحـب، وينظر إلى سقف البيت ودموعه تسيل.... [3] .

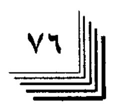
وهـذا الجـواب هـو مسـتنبط مـن الآيـة نفسـها؛ لأن تمامهـا: ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ، أمـا نظـره إلى السـقف، فقـد أخـذه مـن سـنة المصطفى ﷺ كما في فصل كيفية التفكر في خلق السموات والأرض.

---

(١) سورة يس، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

(٣) الرقة والبكاء، ص ٢٢٧.



التدبر بالإجابة عن السؤال

لقد علّمنا الله تعالى كيف نتدبر في الآيات التي أورد فيها السؤالات، كما في قوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [1] ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [2] .

فقد ذكر السؤال في هاتين الآيتين، ثم علّمنا الجواب، وقد وردت آيات كثيرة فيها السؤال بدون جواب، فمن التدبر أن نجيب عن هذا السؤال، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [3] ، الجواب: (لله سبحانه وتعالى)، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [4] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [5] ، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [6] فالجواب كله: (الله سبحانه وتعالى).

وبهذا نكون قد حققنا شيئاً من الاستجابة لله تعالى ولرسوله ﷺ .



(١) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٢) سورة الرعد، الآية: ١٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٣.
(٥) سورة النساء، الآية: ٨٧.
(٦) سورة يونس، الآية: ٣١.



النظر في المصحف يساعد على التأمل والتفكر

إن النظر في المصحف والتأمل فيه يحبه الله تعالى؛ لما فيه من الإعانة على التدبر؛ لأنه أمكن من التلاوة عن ظهر قلب، وكذلك فإننا سنسأل عن النظر أين صرفناه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [(١)] ، فإذا كان البصر قد أخذ نصيبه من المصحف، فلا شك أنه سيثاب على ذلك، وعلى عكس ذلك، إذا كان النظر يحلق فيما يغضب الله تعالى فإنه سيعاقب على ذلك. ومن فوائد النظر في المصحف، لعل الناظر فيه يتورع من التحليق فيما ينهى الله عنه.

ولا شك أن النظر في المصحف والقراءة منه، تمكن القارئ من التدبر أكثر من القارئ الذي يقرأ من حفظه، إذ يصب جهد ذهنه إلى التذكر بالألفاظ، وضبط النص القرآني، حتى لا ينساه، أما الذي يقرأ من المصحف، فإن التأمل فيه أوسع، والتفكر فيه أخشع، وقد أوصانا الصحابي المقرئ المفسر الذي أخذ من فيّ النبي ﷺ سبعين سورة عبدالله ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: «أديموا النظر في المصحف» [(٢)] .

لقد عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان: (القراءة عن ظهر قلب)، وذلك تحت كتاب (فضائل القرآن)، ونقل ذلك الحافظ ابن كثير ثم

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٣٦ .

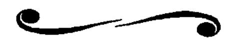
(٢) أخرجه عبدالرازق، المصنف، ٣/ ٣٦٢، والفريابي، فضائل القرآن، ص ٢٢٩، كلاهما من طريق سفيان، عن عاصم، عن زر، عنه، وسنده حسن.



قال: وهذه الترجمة من البخاري - رحمه الله - مشعرة بأن قراءة القرآن من المصحف، وهو عبادة، كما صرح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه... ثم ذكر رواية ابن مسعود السابقة، ونقل عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبدالرحمن ابن أبي ليلى، عن ابن مسعود: «أنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف فقرأوا وفسر لهم» إسناد صحيح.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير الخلاف بين العلماء في أيهما أفضل: القراءة عن ظهر قلب، أم من المصحف؟ ثم نقل عن بعض العلماء، أن المدار في هذه المسألة على الخشوع في القراءة، فإن كان الخشوع عند القراءة على ظهر قلب، فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف، فهو أفضل، فإن استويا، فالقراءة نظر أولى؛ لأنها أثبت، وتمتاز بالنظر في المصحف، قال الشيخ أبو زكريا النووي - رحمه الله - في التبيان: «والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل»[(١)].

ومن أهمية النظر في المصحف وحتى لا يحرم المؤمن من بركات ذلك النظر، فإنه يجوز للجنب والحائض والنفساء النظر في المصحف، وإمراره على القلب، لكن قراءة القرآن عليهم حرام[(٢)].



(١) فضائل القرآن، ص ١٠٨-١١٠، وانظر: التبيان، في آداب حملة القرآن، ص ٥٣، والأذكار، ص ٩٠-٩١.

(٢) انظر: الأذكار، ص ٨.

الامتثال للأوامر القولية

لقد وردت آيات كثيرة فيها الأمر ببعض الأذكار، والآيات بلفظ: ﴿قُلْ﴾، أو: ﴿قُولُوا﴾.

ولقد امتثل بها النبي ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [1]، فكان النبي ﷺ يذكر ذلك عند الركوب، وعند السفر.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ الشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [5]، وغيرها من الآيات... ومن البدهي أن النبي ﷺ قد امتثل بجميع هذه الأمور.

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ١٣-١٤.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٩٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١١٨.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

فكل الآيات التي فيها الأمر للمؤمنين بلفظ: ﴿ قُلْ ﴾ ، ونظائره، ينبغي الامتثال لذلك الأمر، وقد كان الصحابة يمتثلون لذلك، كابن مسعود - رضي الله عنه - كان يدعو بقوله: ﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، فهو امتثال لقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [1] ، ولقد استجاب الله تعالى له، فكان من كبار فقهاء الصحابة، وهو الذي أقسم بأنه ما من آية إلا ويعلم أين نزلت، ومتى نزلت، وفيمن نزلت، وهذا غاية العلم في التنزيل.

(١) سورة طه، آية: ١١٤ .

التدبر بالاستجابة إلى الأوامر القولية والفعلية

لقد أمر الله تعالى بالاستغفار والتوبة من الذنوب لأنفسنا وللمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (١) ، ولهذا كان يستغفر النبي ﷺ لنفسه وللمؤمنين، وكذلك كان يفعل الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – كقول نوح – عليه الصلاة والسلام – : ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ (٢) .

وكقول إبراهيم – عليه الصلاة السلام – : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (٣) ، وأحياناً يأتي الأمر بأسلوب آخر، إذ يذكر أن بعض الأدعية من صفات المؤمنين، ومنها في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٤) ، ولكي نتصف بهذه الصفة العظيمة بما فيها من الابتهال إلى الله تعالى، أن نلهج بهذا الدعاء: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٥) نسأل الله تعالى أن يتقبل ذلك: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٦) ،

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.
(٦) سورة البقرة، آية: ١٢٧ .

وبهذا نكون قد وقفنا عند هذه الآية ثم نستأنف الآية التي فيها الثواب: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴾[1].

ففي هذا الدعاء بركات الدنيا والآخرة.

كما أمرنا الله تعالى كثيراً بإقامة الصلاة، وذكر لنا دعاء إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – في قوله: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾[2].

وكذلك ذكر الله تعالى دعاء إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[3].

ثم أرشدنا سبحانه وتعالى بأن ندعو بمثل هذا الدعاء المبارك، وذلك في الآية التي تلي هذا الدعاء، في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ ﴾[4]، وذلك حتى نتأسى بهم، ونسير على دربهم إلى الجنة برحمته، وبفضله سبحانه وتعالى.

كما أمرنا الله تعالى بأن نلهج بالتحميد والتكبير، إذ قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الممتحنة، الآيتان: ٤-٥.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ٦.

وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [1]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ ﴾ [2].

وكلمة: (الله أكبر) تفيد: إثبات عظمة الله تعالى [3].

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ١-٣.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ١٠/ ٢٥٣.

فوائد التدبر

إن التأمل في الآيات التي تذكر أفعاله سبحانه وتعالى، ودقة تدبيره سبحانه وتعالى في الرزق والرعاية، تجعل المؤمن يعرف عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وأن الآيات الكونية في خلق السموات والأرض وما فيها، تبهر العقول مهما كان مستواها الثقافي، فحينما يذكر الله تعالى خلق السموات وما فيها من زينة الكواكب، فإن المتأمل حتى لو كان من العوام أو من البادية، فإنه يدرك عظمة هذه المخلوقات التي يهتدي بكواكبها، يتطلع إلى سحبها منتظراً الرزق من الخالق، فهو يتابع حركة السحب، واتجاه الرياح التي تسوق السحب بأمر الله تعالى، فيعلم أن الرب سبحانه وتعالى هو الذي يسخر هذه النعم، وهكذا المؤمن المثقف، كلما زادت ثقافته في هذه المخلوقات، فإنه يزداد يقيناً وإيماناً بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، فالفلكي له تعجب من هذه المخلوقات، والفيزيائي له نظرات أخرى، والفضائي له تأملات مختلفة، والكل يسبّح بحمده على عظمته وتدبيره لهذا الكون العظيم، ويستنبط العلوم النافعة، والتجارب الراقية، والأسرار الخفية.

وقال الشيخ السعدي – رحمه الله – عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [1] «وأنزله بهذا اللسان لنعقله ونفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢ .



تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار»[1] .

والقراءة بتأمل وتدبر وتأثر قولاً وعملاً ترتقي بالمؤمن إلى مراتب عالية من العبادة، فهو يرتل كلام الله، ويتأمل ويتفكر فيه، ويدعو الله تعالى بعدة أدعية، فبلغ إلى مخ العبادة، وهو كذلك يستجيب لأوامره، وينزجر عن نواهيه، فمن حظي بهذا فقد أفلح فيما يحبه الله تعالى من قول أو عمل، ويصل إلى مرتبة محبة الله تعالى، وهي سنام العبادة، وقد سرد العلامة ابن قيم جملة من الأسباب لمحبة الله تعالى، ومنها ما يلي:

١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

٢- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

٣- مشاهدة برِّه وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة.

٤- انكسار القلب بين يديه.

٥- الخلوة وقت النزول الإلهي، وتلاوة كتابه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

٦- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

٧- التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض[2] .

---

(١) مقدمة تفسير السعدي، ص ٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ٣/ ١٧-١٨.

وهـذا السبب الأخـير يـتحقق بكـثرة القـراءة والتأمل، والاستجابة بـالقول والعمـل، ويـؤدي إلى منزلة عالية من العون الرباني، فقد ثبت عن الـنبي ﷺ في الحديـث القدسي قوله: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حـتى أحـبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويـده الـتي يـبطش بهـا، ورجلـه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه...»[1] ، فماذا بعد هذا الوعد والعون؟

وقال ابن قيم أيضاً: «فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما لـه من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعـلى الإيمـان بالرسـل، وذكـر بـراهين صـدقهم، وأدلـة صـحة نـبوتهم، والـتعريف بحقوقهم، وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقـه وأمـره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العـالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر، وما أعـد الله فـيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، والتي لا يشعرون فيها بألم ولا نكـد وتنغـيص، ومـا أعـد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سـرور ولا رخـاء، ولا راحـة ولا فـرح، تفاصـيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعـلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصـص والأمـثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في

(١) صحيح البخاري، الرقاق، باب (التواضع)، ح ٦٥٠٢.

خلقـه وأمـره، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفـه بوعـيده مـن العـذاب الوبـيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء الـيوم الثقـيل، وتهديـه في ظلم الآراء، والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عـن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم، بشكر ربـه الجلـيل، وتبصِّـره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها؛ لئلا يتعداها، فـيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ، والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فـترت عـزماته ونـي في سـيره، تقـدم الركـب، وفـاتك الدليل، فاللحاق الـلحاق، والرحـيل الرحـيل، وتحـدو بـه، وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خـرج علـيه كمـين مـن كمـائن العـدو، أو قـاطع من قطاع الطريق نادته، الحـذر! الحـذر! فاعتصـم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل. وفي تـأمل القـرآن وتدبـره وتفهمـه أضـعاف أضـعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد»[1].



(١) مدارج السالكين، ١/ ٤٥٢-٤٥٣.

التدبر بالقصص

إن القصـص القـرآني مـن أرقـى وأحسـن القصـص، قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [1].

إن العـبرة في قصـص الأولـين، وأخـذ الموعظـة مـنها، تعطـي الخبرة الواعـية في الدعـوة إلى الله تعـالى، وتعطي الدروس المستفادة منها في أهمية العقـيدة، وفضـل الصـبر، وبـركات الإيمـان بالله تعالى، وتكشف مخططات الشـيطان وأتـباعه، فمـتى مـا وقـع العـبد في مخمصة وفي ابتلاء فإنه يتذكر قصـص المحن والشدائد فتخف وطأة المصيبة وكذلك تدبر القصص القرآني تـبرز عـناية الله تعـالى بالمؤمنين ورعايتهم، وتبين لنا صراع الحق مع الباطل مـنذ أن خلق الله تعالى آدم – عليه الصلاة والسلام – إلى زماننا، بل إلى أن تقـوم السـاعة، وإن قصـص أولئك المؤمنين والصابرين لترقق القلوب، مما يسـاعد المؤمـن عـلى الاستجابة للأوامر، والازدجار عن النواهي، وتجعله يـزداد في حـب الله تعـالى، والتوكل عليه، والخوف منه، وحمده، وشكره في السراء، والصبر على الضراء، فيكون بذلك قد حقق العبادة لله تعالى.

قـال الإمام ابن قيم الجوزية: «وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلـب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجـرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢ .



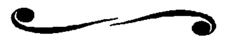
﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1] ، وقال الحسن: «نزل القرآن ليتدبر، ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته»، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتهما، وأسبابهما، وغاياتهما، وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتل في يده[2] مفاتيح كنوز السعادة، والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشديد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة: تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة

---

(١) سورة ص، آية: ٢٩ .

(٢) تل الشيء في يده، بالمثناة الفوقية المفتوحة، وضمه فيها.

والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها، ومطالعتها، فتشهده الآخرة، حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا، حتى كأنه ليس فيها... وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلفت فيه العالم، فتريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة،وسعة، وانشراحاً، وبهجة، وسروراً، فيصير في شأن، والناس في شأن آخر....» [(١)] .



(١) مدارج السالكين، ١/ ٤٥١-٤٥٢.

ماذا نقول في سجود التلاوة ؟

من التدبر في السجود: أن نسبح بحمده، كما علمنا الله تعالى، إذ قال في بضع صفات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾[1]، ثم ذكر بعده هذه الآية من صفاتهم: الدعاء والإنفاق، ثم ذكر الجزاء الأعظم في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[2].

وفي ذلك جواب لسؤال يتكرر عند كثير من المسلمين: ماذا نقول عند سجود التلاوة؟

فمن الأجوبة ما ورد في القرآن الحكيم من التسبيح والتحميد.

وكذلك ذكر الله تعالى من صفات المؤمنين: أنهم لم يسجدوا كالصم، بل يلهجون بالتسبيح والتحميد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾[3].

إن هذا التدبر يزيد المؤمن خشوعاً في تلاوته، ومما يؤكد أن التسبيح في سجود التلاوة يزيد الخشوع: ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٥.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٣) سورة الفرقان،الآية: ٧٣.

لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ (١).

وفي هـذه الآيات بيان لأهمية التسبيح والتحميد عند سجود التلاوة، وكيف يرتقي بالعبادة المؤثرة الخاشعة.

(١) سورة الإسراء،الآيات: ١٠٦-١٠٩.

التدبر بالأمثال

قال العز بن عبدالسلام – ت ٦٦٠هـ – في كتابه القيم (الإلمام في أدلة الأحكام): «إنما ضرب الله الأمثال في كتابه، تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح، أو ذم، أو نحوه، فإنه يدل على الأحكام» ا . هـ [(١)].

فيجب على قارئ القرآن أو سامعه، أن يقف وقفة تأمل وتفكر بالأمثال العظيمة الغزيرة التي وردت في القرآن الكريم، التي جاءت في غاية الفصاحة والبيان، حافلة بالفوائد التي يحتاجها المسلم في دينه ودنياه.

وقال الزركشي: «وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث تكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس» [(٢)].



(١) انظر: الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، ص ١٢.

(٢) البرهان، ١/ ٤٨٦-٤٨٧.



التدبر بالعرض للقرآن كل عام

وقد صح عن ابن عباس – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ كان يعرض على جبريل القرآن كل عام مرة في شهر رمضان، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، فحضر ابن مسعود – رضي الله عنه – فعلم ما نسخ من ذلك وما بُدِّل [(١)].

وعلم الناسخ والمنسوخ أساس في معرفة التفسير، وأحكام القرآن.

ومن الذين عرضوا القرآن على الرسول ﷺ : أُبي بن كعب – رضي الله عنه – صرّح بذلك الذهبي [(٢)]، وأُبي ممن نبغ في علم التفسير من الصحابة، وهو سيد القراء أيضاً.



(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، ٢/ ٣٤٢، وأحمد في المسند، ٥/ ١٤١-١٤٢، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح، ٩/ ٤٥.

(٢) في كتاب القراء الكبار، ١/ ٢٨.

بداية القراءة بالتدبر

لقد علّمنا الله تعالى أن نبدأ قراءتنا بالاستعاذة، إذ قال العليم الحكيم: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[1]، ومن صيغ الاستعاذة: ما ورد من القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾[2].

والاستعاذة تذهب الشيطان ووساوسه، فقد أخرج مسلم بسنده عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها عليّ»، فقال له رسول الله ﷺ : «ذاك شيطان يقال له: خِنْزَب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً»، قال: «ففعلت، فأذهبه الله عني»[3].

وفي هذا الأمر: اللجوء إلى الرحمن الرحيم من وسوسة الشيطان الرجيم، الذي ينزغ ويوسوس ويشغل المؤمن عن الخير، وبذلك ينشغل الفكر بالتدبر، ثم بعد هذه الاستعاذة نقرأ البسملة، والاستعاذة ليست بآية، أما البسملة فهي جزء من آية، وفيها الابتداء بذكر الله تعالى، أي (أبدأ قراءتي بذكر اسم الله تعالى الذي من صفاته الرحمن الرحيم)، إذ فيها ذكر

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٨.

(٢) سورة المؤمنين، الآيتان: ٩٧-٩٨.

(٣) الصحيح، السلام، باب (التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة)، ٤/ ١٧٢٨، ح ٢٢٠٣.

الرحمن، فنسأل الله تعالى الرحمة: (رب اغفر وارحم وأنت أرحم الراحمين)، أو نسأله الجنة، كتدبر النبي ﷺ، ومن أنواع سؤاله الجنة: (اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى)، أو (أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل).

وحينما يتأمل المؤمن رحمة الله تعالى في القرآن، ويتفكر فيها، يجد أنها قد وسعت كل شيء، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، بل هي قريبة من الذين أحسنوا قولاً وعملاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

ولقد أكد النبي ﷺ على سعة رحمة الله تعالى، فقال: «إن لله مائة رحمة، أنزل رحمة واحدة بين الجن والأنس، والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخّر تسعاً وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة»[3].

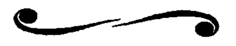
وكل هذا يمهد النفس للتعامل مع كلام الله عز وجل بالقراءة، بأنها ستبدأ بقراءة أمر عظيم، ذي افتتاح خاص، ثم نبدأ بتلاوة الآيات تدبراً، والتدبر في مطلع السورة هو بداية التفكر والتأمل، ثم الاستجابة والذكر.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) صحيح البخاري، الأدب، باب (جعل الله الرحمة في مائة جزء)، ح ٦٠٠٠، وصحيح مسلم، التوبة، باب (سعة رحمة الله)، ح ٢٧٥١.

وبعد البسملة وقبل الابتداء بالسورة يتذكر القارئ اسم السورة، فيعلم أن السورة لها علائق ووشائج في موضوع اسم السورة، ففيه تمهيد للدخول في إحدى قضايا هذه السورة.

اقرأ سورة بما سبق من التدبر والتأمل سترى غير الذي سبق في القراءة المتقدمة، وهكذا كلما أعدنا التأمل: زادنا الله تعالى نوراً وهدى، وشرح الصدور للفهم والعمل، حتى لو أشكلت بعض الآيات، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الأثر المعروف – هكذا وصفه – عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال: «يقرأ القرآن رجلان، فرجل له فيه هوى، ورجل يقرأه ليس فيه هوى... فما تبين له منه، عمل به، وما اشتبه عليه، وكَلَهُ إلى الله، ليتفقهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فليبعثن الله له من يبين الآية التي أشكلت، أو يفهمه إيّاها من قبل نفسه»[(١)].



(١) مجموع الفتاوى، ١٧/ ٣٩٤.



تدبر أحكام القرآن

ومن أهم أهداف التدبر معرفة أحكام القرآن الكريم لبيان الحلال والحرام وذلك عن طريق الأوامر والنواهي، فما كان من حلال فقد أبيح لنا وما كان حراماً اجتنبناه، وقد وردت أساليب كثيرة تتضمن أحكام القرآن الكريم، وقد حاول استيعابها وعرضها سلطان العلماء العز بن عبدالسلام – رحمه الله – في كتابه القيم «الإلمام في أدلة الأحكام» فقال: ويستدل على الأحكام تارة بالصيغة وهو ظاهر وتارة بالإخبار مثل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وتارة بما رتب عليها في العاجل أو الآجل من خير أو شر أو نفع أو ضر، وقد نوع الشارع ذلك أنواعاً كثيرة ترغيباً للعباد وترهيباً وتقريباً إلى أفهامهم، فكل فعل عظمه الشرع أو مدحه أو مدح فاعله، أو أحبه أو أحب فاعله أو رضي به أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب، أو أقسم به أو بفاعله كالإقسام بالشفع والوتر وبخيل المجاهدين وبالنفس اللوامة، أو نصبه سبباً لذكره لعبده أو لمحبته أو للثواب عاجلاً أو آجلاً، أو لشكره له أو لهدايته إياه أو لإرضاء فاعله أو لمغفرة ذنبه وتكفير سيئاته، أو لقبوله أو لنصرة فاعله، أو بشارته أو وصف فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بكونه معروفاً، أو نفي الحزن أو الخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسول بحصوله، أو وصفه بكونه قربة أو بصفة مدح كالحياة والنور والشفاء فهو دليل على مشروعيته

المشتركة بين الوجوب والندب، وكل فعل طلب الشارع تركه أو ذمه أو ذم فاعلـه أو عتـب علـيه أو مقت فاعله أو لعنه أو نفى محبته أو محبة فاعله أو الرضـا بـه أو الرضـا عـن فاعلـه، أو شـبه فاعله بالبهائم أو بالشياطين، أو جعلـه مانعاً من الهدى أو من القبول، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبـياء مـنه أو أبغضـوه، أو جعلـه سـبباً لـنفي الفلاح أو لعذاب آجل أو عـاجل أو لذم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصف بخبث أو رجس أو نجـس، أو بكونه فسقاً أو إثماً أو سبباً لإثم أو رجس أو لعن أو غضب، أو زوال نعمـة أو حلول نقمة، أو حد من الحدود أو قسوة أو خزي أو ارتهان نفـس، أو لعـداوة الله ومحاربته أو لاستهزائه أو سخريته، أو جعله الله سبباً لنسـيانه فاعلـه، أو وصف نفسه بالصبر عليه أو بالحلم أو بالصفح عنه، أو دعـا إلى الـتوبة مـنه أو وصـف فاعلـه بخبـث أو احـتقار أو نسبه إلى عمل الشـيطان، أو تزيـينه أو تولـي الشيطان لفاعله، أو وصف بصفة ذم ككونه ظـلماً أو بغـياً، أو عدوانـاً، أو إثمـاً أو مرضـاً، أو تـبرأ الأنبـياء منه أو من فاعلـه، أو شـكوا إلى الله من فعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نهوا عن الأسـى والحـزن عليه، أو نصب سبباً لخيبة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب علـيه حـرمان الجـنة ومـا فـيها، أو وصـف فاعله بأنه عدو الله، أو بأن الله عـدوه، أو أعـلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمّل فاعله إثم غيره، أو قـيل فيه لا ينبغي هذا أو لا يكون، أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل مضاده، أو بهجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم

من بعض، أو دعا بعضهم على بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه ليس من الله شيء أو ليس من الرسول وأصحابه، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح أو جعله سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، أو قيل هل أنت منته؟ أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاداً أو طرداً أو لفظة: قتل من فعله، أو قاتله الله، أو أخبر أن فاعله لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه ولا يصلح عمله ولا يهدي كيده أو لا يفلح، أو قيض له الشيطان، أو جعل سبباً لإزاغة قلب فاعله، أو صرفه عن آيات الله وسؤاله عن علة الفعل، فهو دليل المنع من الفعل ودلالته على التحريم أظهر من دلالته على مجرد الكراهة.

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ونفي الجناح، والحرام، والإثم، والمؤاخذة، ومن الإذن فيه والعفو عنه، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، ومن السكوت عن التحريم، ومن الإنكار على من حرم الشيء، ومن الإخبار بأنه خلق أو جعل لنا، والإخبار عن فعل من قبلنا غير ذام لهم عليه، فإن اقترن بالإخبار مدح دلّ على مشروعيته وجوباً أو استحباباً [1].

---

(١) انظر: الإكليل في استنباط التنزيل، ص ١٢-١٣، وانظر: بدائع الفوائد، ٤/ ٢-١٠، وتفسير السعدي، ص ٨-٩.

الاستفادة من التأمين في آيات الدعاء

إن لفظ (آمين) بعد سورة الفاتحة معناه استجب وهي ليست من القرآن الكريم، وقد جاء ذكرها بعد الدعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ ويمكن الاستفادة منها في الآيات التي فيها دعاء لله تعالى، بأن تقال بعد تلك الآيات فهي نظير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ وبذلك نكون قد استفدنا منها قياساً واقتباساً وأسوة وقدوة بإبراهيم وإسماعيل ومن تابعهم من الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهرس

